بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فيها غلت الأسعار جداً بالعراق واشتد المحل وكثر الجدب ، وكانت الغلات كثيرة والحبوب موجودة غير أن الناس رفعوا أيديهم عن البيع ، وسبب ذلك أن ظهير[1] الدين أبا بكر [منصور] بن العطار — صاحب المخزن — كان قد تحكم فى دولة الخليفة تحكما زائداً ، واستولى على جميع المعاملات الواسطية وضمن[2] البلاد سائرها ، ومنع البيع من خزائن الغلات والحبوب ، فاشتدت بغضته فى قلوب الناس وخاصة أرباب دولة الخليفة ، وكانوا يقولون : « سبب غلو الأسعار منعه لبيع الغلات » .

وفيها كثر الوباء حتى مات من الخلق مالا يحصى كثرة .

---

(١) هو ظهير الدين أبو بكر بن منصور بن نصر بن الحسين المعروف بابن العطار المتوفى بالعقوبة فى هذه السنة (٥٧٥هـ) من قبل الخليفة الناصر لدين الله ، وقد أشار ابن كثير فى البداية والنهاية ٣٠٥/١٢ الى أن مصرعه أدى الى تمكن الامر للخليفة وعظم هيبته فى البلاد ، وذكر ما يشتم منه قبح سيرته ، على حين أثنى عليه من هو أقدم منه وأقرب الى عصره ونعنى بذلك ابن الاثير فى الكامل ١٨٧/١١ ، ثم قفاه فى ذلك ابن الوردى فى تتمة المختصر ٩٠/٢ . ويعلل ابن الوردى ما أصاب ابن العطار من نكبة بحسد الناس له لما بلغه من المكانة ، ومن ثم استشهد بالبيتين التاليين :

اذا نلت العلا رأع الرعايا
فان القوم أعداء المعالى

يرون على الفتى ذنبا عظيما
وان أمنوه فى نفس ومال

(٢) ضمن هنا بمعنى احتكر .

وفيها بسطت يد الشريف يمين الدين الهاشمى مشرف الديوان العزيز فى الدولة ، ووقعت المشاحنة بينه وبين ظهير الدين بن العطار .

وفيها مرض المستضىء[1] بأمر الله واشتد به المرض وكثرت الأراجيف بموته ولم يتحقق الناس ذلك ، وكانت الأسواق تغلق فى أكثر الأوقات لايجسر أحد أن يبيع ويشترى ، فكانت وفاته أول ليلة من ذى القعدة من السنة ، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وأحداً وعشرين يوماً .

أولاده : أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، وأبو منصور .

وزيره : رئيس[2] الرؤساء .

* * *

(١٢) خلافة الناصر لدين الله

أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وذكر مختصر من إيالته ومحاسن سيرته وذكر ماتجدّد فى أيامه للبيت الأيوبى من الفتوحات والغزوات وغير ذلك والشام ومصر واليمن ، ذكرتُه مفصلا ، أختم به كتابى هذا الموسوم بكتاب « المضمار » وبالله المستعان وهو حسبى ونعم الوكيل .

هو أبو العباس أحمد الناصر[3] لدين الله أمير المؤمنين — ثبّت الله

---

(١) هو الذى عادت الخطبة باسمه فى الديار المصرية والشامية والثغور ، على أن الوارد فى أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/٨٥ أنه مات فى ثالث ذى القعدة ، أما ابن كثير فيشير فى البداية والنهاية ١٢/٣٠٤ الى أن وفاته كانت فى سلخ شوال ، وذكر ابن الوردى تتمة المختصر ٢/٨٩ أنها كانت ثانى ذى القعدة ، واكتفى ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/٢٥١ بقوله « ذى القعدة » فقط .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر المتوفى سنة ٥٧٣ هـ .

(٣) كانت وفاته فى رمضان ٦٢٣ هـ .

دعوته — بن الإمام أبى محمد الحسن المستضىء بأمر الله ، بن الإمام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، بن الإمام أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله ، بن الإمام أبى العبّاس أحمد المستظهر بالله ، بن الإمام أبى القاسم عبد الله المقتدى بالله ، بن محمد ذخيرة الدين — وليس بإمام — بن الإمام أبى جعفر عبد الله القائم ، بن الإمام أبى العباس أحمد القادر بالله ، بن الإمام جعفر المقتدر ، ابن الإمام أبى العباس المعتضد ، بن محمد الموفق — وليس بإمام ، بن الإمام أبى الفضل جعفر المتوكل ، بن الإمام أبى أسحق محمد المعتصم ، بن هارون الرشيد ، بن محمد المهدى ، بن أبى جعفر المنصور ، بن محمد ، بن على ، بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، بويع له يوم الأحد مستهل ذى القعدة من السنة المذكورة صبيحة اليوم المذكور ، وتولى عقد البيعة ذو الرياستين مجد الدين أبو الفضل [هبة الله بن على بن هبة الله] بن الصاحب أستاذ[1] الدار وظهير الدين أبو بكر منصور بن العطار صاحب المخزن ، وحضر فى البيعة العلية (٢ ب) ضياء الدين الشهرزورى[2]، أتفق ذلك أوان وصوله برسالة الملك الناصر صلاح الدين ، وخُطب[3] له بمدينة السلام ببغداد ، ونثرت الدنانير على المنابر بجوامعها ، وسُيرّت الكتب مع الرسل إلى البلاد الإسلامية ، فأرسل صدر[4] الدين عبد الرحيم بن اسمعيل [ابن اسمعيل

---

(١) كانت توليته الاستادرية للمستضىء بالله سنة ٥٧١ هـ ووفاته عام ٥٨٣ ، راجع ابن الاثير الكامل ١٧٧/١١ ، ٢٣٠ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧٦/٦ .

(٢) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله ، وكان صلاح الدين الايوبى قد رتبه للرسالة بينه وبين الخليفة لقربه من قلب الخليفة ، وقد مات سنة ٥٩٩ هـ ، انظر ذيل الروضتين ص ٣٥ — ٣٦ ، أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ١٨٣/٦ .

(٣) يعنى للخليفة الجديد .

(٤) كان هو الذى تولى تدبير أمر طغرل شاه بن ارسلان شاه ، وتسميه المراجع العربية أحيانا بصاحب بلاد الجبل والرى أصفهان وأذربيجان ، راجع النجوم الزاهرة ١٠٠/٦ .

ابن أبى سعد [شيخ الشيوخ] النيسابورى] إلى أتابك بهلوان [محمد] ابن أيلدكز[1] بهمذان ، فبثّ الدعوة الهادية فى تلك البلاد من أصفهان وجميع بلاد خراسان وأذربيجان ، وسيّرت رسل الخلافة أيضاً إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فأقام الدعوة الهادية الإمامية فى جميع البلاد والثغور والشام والديار المصرية ، وحضر شعراء الديوان العزيز على جارى العادة لتهنئة مولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين عند جلوسه فى الخلافة فى ذى القعدة ، فأنشد كل منهم كلمته ، فمن ذلك الأجل أمين الدولة محمد بن عبد الله سبط[2] التعاويذى ، وكان من أفاضل الشعراء المقدّمين ، ذكرتها بتمامها لاستحسانها وهى :

طاف يسعى بهـا على الجُلاّس
كقضيب الأراكة الميّـاسِ
بدْرُ تم غازلت من لحظه ليـ
ـلة نادَمْتُه غَـزَالَ الكِناسِ
ذلّلته لى المـدام فأمسى
لينّ العطف بعد طـول شماسِ
بات يجلو علىّ روضة حُسْنٍ
بتّ منها مابين وردٍ وآسِ
أمْزِجُ الكأس من جناهُ ، وكم ليـ
ـلةِ صدٍ مزجتُ بالدمع كاسى
لايَبتْ ذلك الحبيب بمـا بتُّ (م)
أعانى من لوْعـة وأقاسى

---

(١) الذكر » فى الأصل .

(٢) الوارد فى النجوم الزاهرة ٦/١٠٥ محمد بن عبيد الله هذا وقد كانت وفاته سنة ٥٨٣ هـ .

[١٣] قلتى من وشاحه وبقلبى
ما بخلخـــاله من الوسواسِ
أىّ برح لوكان لى مسعد فيـ
ـه وجرح لو كان لى منه آسى
مَنْ تناسى عهـــد الشباب فإنىّ
لحميدٍ من عهـــده غير ناسى
أخْلَقَ الدهر جدّتى وغدت منـ
ـكوبَة بعـــد مِرّة أمْراسى
يانهـــار المشيب من لى — وهيْـ
ـهات — بليلِ الشبيبة الدّيماسى
حال بينى وبين لهـــوى وَإطْرَا
بِىَ دهـــرٌ أحال صبغةَ راسى
ورأى الغانيـــاتُ شيبى فأعرضْـ
ـنَ وقلن : الشبابُ خير لباسى
كيف لايفضل السواد وقـــد أضـ
ـحى شعـــاراً على بنى العبّاس
أمناءِ الله الكرام وأهـــل الـ
ـجود والحـــلم والتقى والباس
علماء الدين الحنيف وأعـــلام
ـمِ الهدى والضراغم الأشواس
أيّد الله دينـــه بجمـــالٍ
منهمو شُمَّخُ الجبال رواسى
واصطفاهم من كل أغلب مشبو
بِ الذراعين ، للعِدىَ فرّاس

فهمو الآمرون بالعـــدل ، والـ
ـحاكمون [الناس[1]] بالقسطاس
ولقد زِينَتِ الخـــلافةُ منهم
بإمام الهـــدى أبى العباس
ملكٌ جلّ قـــدسه عن مثال
وتـــعالت آلاؤه عن قياس
هاشميٌّ له زئـــير ينسى :
الأسود الزئـــير فى الأخياس
وسماح يُغنِى البلاد إذا الأنـ
ـواء ضنَّتْ بصوبة الرّجاس
[٣ب] جمع الأمنُ فى إيالته ما
بين ذئب الغضا وظَبْى الكناس
وعنى خاضعا لعـــزّته كلُّ (م)
أبىّ القياد صعب المـــراس
بثّ فى الأرض رأفةً بدّلت وحْـ
ـشةً سارى الظلام بالإيناس
غادَرَتْ جفوةَ الليالى صفوًا
وألانَتْ قلبَ الزمان القاسى
بيَدِ الناصر الإمام استجابَتْ
بعْد مطلٍ منها وطول شماس[2]
ردّ تدبيرها إليـــه فأضحى
ملكها وهو ثابت الأساس

---

(١) ساقطة فى الأصل وقد أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى والوزن .
(٢) أمامها فى الهامش « مكاس » .

يا لها بيعةً أجدَّت من الإسـ
ـلام بالى رسومه الأدراسِ
وَلِىَ اللهُ أمرَها فله المنَّـ
ـة فيها عليه لا للناس
جمعتنا على خليفة حقّ
نبوىِّ الأعراق والأغراس
فى مقـــامٍ ذُلَّتْ لهيبَته الأعـ
ناق ذلّ النقاد للهرماس
زال فيه الحجاب عن ملكٍ عا
رٍ من العار، للتُّقى لبّاس
ورأينا بردَ النبىّ على منـ
كب طودٍ من الأئمة راسى
ماليأ هديه مواقف من نو
ر جلالٍ يضىء كالنبراس
فله فى الرقاب عهد ولاءٍ
محكم العقد محصد الأمراس
يا مبيد العدى ويا طاردَ المحْـ
ـلِ نداهُ ، وقاتل الإفلاس
حجة الله أنت والسبب الممـ
ـدود ما بينه وبين الناس
أنت أحييْت رمة العدل والجـ
ود وأنشرْتها من الأرماس
(١٤) جُدتَ قبل السؤال عفوا وكأىّ
من يد لا تـــدرّ بالأبساس

وأرحت الزوراء من جَوْرٍ مزوّر
(م) عن الخير فاجر مكتاس
أنفاً للإسلام منه ومن أشيا
عه ، عصبةِ الخنا الأرجاس
ردّ فى نحره انتقامك ما فوّ
قَهُ من سهامه الأنكاس
دُنستْ برهـــة بأفعاله الدنـ
ـيا فطهّرتْها من الأدناس
بك عاذتْ من شرّ شيطانه الوسـ
ـواس فيها بمكرة الخنّاس
واشتكت داءها العضال فألفتْ
كَ لأدوائها الطبيب الآسى
فابق للدّين ناصراً ، وارْم بالإرْ
غام جدَّ الأعداءِ والأتعاس
واستمعها عذراء شرط التهانى
واقتراح النـــدمان والجلاس
حملتْ من أريج مدْحك نشراً
هى منـــه مسكية الأنفاس
مِدَحاً فيك لى ستبقى على الد
هْر بقاء التنزيل فى الأطراسِ
ما أميطتْ راحه يراع وما خطّ
تْ يمينٌ رقشا على قرطاس

* * *

وبعد البيعة الشريفة بأيام برز الأمر الشريف ببسط يد مجد الدين ابن الصاحب وحُكّم فى الدولة ، ونفذت أوامره فى جميع أرباب الدولة،

وتقدم إليه ببيع الغلاّت والحبوب على الناس ، ففتح الخزائن وأطلق البيع فيها ، وأمر أن يُعطَى الأجناد أرزاقهم من الحنطة والشعير والحبوب ، ففعل ذلك ، فرخصت الأسعار وكثرت الخيرات وفرّج الله سبحانه وتعالى عن الناس ما كانوا فيه من القحط والمحل (٤ ب) وشدة الجوع ببركة قدومه[١] وإيالته الميمونة ، وأنفذ إلى البلاد الواسطية السفن الكبار مملوءة طعاماً من سائر الحبوب ، وتلا ذلك تواتر الأمطار والمدود وكثرة الخصب ، وانقضت سنو[٢] الجدب عند ولايته ، وكان الناس يسمّون أيامه « العيسوبية » لذهاب ما كانوا فيه من شدّة القحط بمدا أيامه الزاهرة ، زيدت شرفا .

* * *

ذكر (٣) وقعة ظهير الدين بن العطار وقتله

وكان هلاكه يوم الخامس من ذى القعدة .

ذكر السبب فى ذلك :

كان خالص[٤] الخادم من خواص الحضرة الشريفة ، فبرز الأمر العالى أن يوقع له بلحف الجبل والبَـنْدنجين[٥] وما يجرى معها فنفّذ أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب إليه يأمره بالتوقيع لخالص [الخادم] كما أمر أمير

---

(١) فى الأصل « قدمه » .

(٢) فى الأصل « سنى » .

(٣) أمامها فى الهامش « محنة ظهيرالدين بن العطار » وهذه العبارة بخط كاتب الصفحة الاولى من المخطوطة .

(٤) هو مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصر خادم الخليفة الناصر لدين الله ، وقد سلم اليه الخليفة مماليكه الخواص ؛ وكانت وفاته سنة ٥٨٤ هـ . هذا وقد اكتفى ابن الاثير : الكامل ١١/١٢ فى ترجمته بقوله « خادم الخليفة وكان أكبر أمير ببغداد » .

(٥) بلدة فى طرف النهر وان كثيرة المحال ، راجع ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٢٢٥/١ . أما لحف الجبل (بكسر اللام وسكون الحاء) فصقع من نواحى بغداد وذكر مراصد الاطلاع ١٢٠١/٣ أنه سمى بذلك لانه فى لحف جبل همذان ونهاوند ، وقال أيضا انه يعرف بجبل حمرين ، وجاء فى محيط المحيط أن لحف الجبل أسفله .

المؤمنين ، فاستعظم ذلك ولم يمتثل المراسم النبوية ، فكان فى جواب ذلك التقدم بالقبض على ابن العطار ونقله إلى التاج العتيق ، فعُذّب بأنواع العذاب ومات بعد أيام ، فحمل ليلاً إلى دار أخته ، فجعلته فى تابوت وأرادت إخراجه خفية لئلا يعلم به أحد ، فجعل أستاذُ الدار على إخراجه عينا من حيث لا يُعلم به ، ونبّه الأعوام[1] على إخراجه ، وأوقف جماعته على باب النوبى[2] ينتظرون خروجه ، وكان الناس يبغضونه لما كان يبدو منه فى سنى المحل من منع البيع العام على الناس والضمانات الجارية فى أيامه ، [و] ما كان يجرى منه فى حق الأجناد والمماليك ، فلما خرج تابوت ابن العطار وليس وراءه أحد يؤبه له ووصل خارج باب النوبى من دار الخليفة أشار بعض من كان العينَ على خروجه إلى العوام [ه ١] والمماليك : « هذا تابوت ابن العطار » ، فتكاثرت العوام على أخذه ، وأُلقِىَ من رءوس الحمّالين وكسر ، وأُخرج من التابوت ومزّقت أكفانه ، وربطوا فى إحدى رجليه حبلاً من ليف ، وجعلوا يسحبونه فى الأسواق والدروب بمدينة السلام ، وكانوا ينادون عليه ، وفُعِل به كما فعل بابن القرايا المشد ، حتى إن من الناس من قطع خنصره وأذنه ، وكان ذلك فى الخامس عشر من ذى القعدة[3] كما ذكرنا .

* * *

استدعاء فخر الدولة بن المطلب بين يدى الناصر لدين الله لُيستوزر ، وذلك فى الشهر المذكور من السنة :

كان فخر الدولة بن المطلب رجلاً عالما زاهداً ورعاً كثير المعروف مشهوراً بالصلاح والتقى ، فلما كانت الأيام المستنجدية — سقى الله عهودها

---

(١) يقصد بذلك العامة .

(٢) هو أحد ابواب بغداد ، ويستفاد مما سيرد بعد فى هذه المخطوطة أن قصاء الملوك هم الذين كانوا يدخلون منه ويقبلون الارض عنده قبل دخولهم على الخليفة ، راجع أيضا Blochet : Histoire d'Egypte de Maqrizi, p. 192.

(٣) فى الاصل « ذى الحجة » والصواب ما اثبتناه بالمتن .

الرضوان — دعاه ليستوزره فامتنع ، وطلب الإقالة فلم يفعل ما أمر ، وقصته مشهورة بذلك ، فلما كانت الأيام المستضيّة طولب بما طولب به من قبل ، فسأل أن لا يكلف ذلك ، فلما أنعم الله تعالى على عباده بالأيام الناصرة لدين الله أمر بإحضار فخر الدولة بن المطلب ، فحضر بين يدى السّدة الشريفة النبوية وخدم ، فلما استقلّ به المكان تقدّم إليه أمير المؤمنين بأن يكون له وزيراً ومشيراً لمكانته من الدين والعلم والبيت[١] ، فلما سمع كلامه قبّل الأرض وخدم وقال : « يا أمير المؤمنين : المملوك[٢] رجل شيخ وما يجوز أن يفتح له كُتّابا بعد العصر » فقال له بهاء الدين صندل الخادم : « أجب أمير المؤمنين » ، فقال[٣] : « ليس لك فى إجابتى مصلحة ، [٥ب] لأننى لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرّك على ما بيدك من الإقطاع والولايات بل كنت أجريك على قاعدة بلال وأزيل عنك هذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيوف مشهورة » ، فضحك أمير المؤمنين من قوله وقال له : « تشير علىّ بمن يصلح ؟ » فقال : « هذا أصلح من عندك » ؛ وأشار إلى مجد الدين بن الصاحب وهو إذ ذاك أستاذ الدار العزيزة ، فضاق صدر أستاذ الدار من قول فخر الدولة ولم يعجبه ذلك ، فقال له[٤] أمير المؤمنين : « لم لا يرضيك قوله وهى[٥] أرفع درجة ؟ » ، فقال « يا أمير المؤمنين ، لا أبيع حضورى فى هذه الخدمة بالدنيا وما فيها » ، وسأل أن يقرّ على خدمته — وهى أستاذية الدار — فأقره على ذلك ، وكان أعظم الناس مكانةً عنده إلى أن قتل[٦] .

---

(١) اى بيت بنى العباس .

(٢) يعنى بذلك نفسه .

(٣) الكلام هنا موجه الى صندل الخادم .

(٤) الضمير هنا عائد على مجد الدين بن الصاحب أستاذ الدار .

(٥) يعنى بذلك وظيفة الوزارة .

(٦) كان مقتله فى ربيع الاول سنة ٥٨٣هـ بوشاية سعى بها أحد صنائعه لدى الخليفة معبحا لديه أفعاله ، وقد وجدت هذه الوشاية قلبا مفتوحا لانه كان يراه صاحب الأمر دونه) راجع ابن الاثير : الكامل ١١/٢٣٠ .

ثم قال له : « شرْ علينا بمن نوليه » ، فقال فخر الدولة: «إن أمير المؤمنين إنْ يُـوَلّ سليمان بن جاووش نائب وزارة فرأيه أعلا » ، فأحضر سليمان بن جاووش — وكان يلقب بحسام الدين — إلى التاج الشريف ومن كان يختص بالديوان العزيز من أرباب الدولة والأجناد ليقضوا شهر[1] المستضيء بالله ، رحمة الله عليه ورضوانه .

* * *

وكان علىَ حسام الدين بن جاووش قلنسوة فخلع عليه جبة وعمامة بيضاء، وخلع على أرباب الدولة كافة فى ذلك اليوم ، وركب ورتّب نائبَ وزارة ، فبقى ينوب فى الديوان العزيز شهراً ، فوجد عليه أستاذ الدار ابن الصاحب لكونه كان يقف فى تقدّماته ، فعزله ورتّب عوضه ابن البخارى وذلك فى محرم سنة ست وسبعين ، وسنذكره إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أقطع آل تنبه الشطرنجى واسطا ، واعطى قيطرمش شحنكية بغداد أجمع .

وفيها صرف ابن طلحة من حجبة الباب الشريف ، ورتب عوضه قوام الدين بن زيادة .

وفيها رتب ابن شبيب صاحب مخزن ، ورتب زين الدين مشرف مخزن أيضا ، ورتب ابن جعفر صاحب باب[2] المراتب ، واقر أبو على بن الوكيل

---

(١) المقصود بذلك تكريم المستضيء بعد وفاته بزيارة قبره ، وهذه عادة متبعة فى كثير من البلاد الاسلامية .

(٢) راجع رسوم دار الخلافة لابن المحسن الصابىء (تحقيق الأستاذ ميخائيل عواد) ص ٢٠ — ٢١ .

على عمله صاحب ديوان ، وأقر أمين الدين مهيمنا على إشراف الديوان العزيز .

وفيها خلع التشريفات الجميلة على آل تنبه الشطرنجى ، وقيطرمش شحنة[١] بغداد ، وسيف الدين طغلو شحنة الخواص ، ومُيّزوا على جماعة المماليك والأمراء .

ذكر ما تجدد للسلطان[١] بالشام ومصر فى هذه السنة من الأحوال والفـــزوات

ودخلت هذه السنة والسلطان نازل[٣] على تل القاضى بانياس[٤] وعسكره المنصور فى كل يوم يصبحون بلد العدو ويشنّون الغارات وينقلون مايجدونه من الغلات ، وكان العام كثير الجدْب حتى لم يبق بتلك البلاد لهم إلاّ اليسير .

وكان المقدم على العسكر عز الدين[٥] فرخشاه [بن شاهناه بن أيوب] ابن أخى السلطان ، وكان مخيمه على بعد من السرادق السلطانى قدّامه ، فجاء إلى السلطان ومعه جماعة من الأمراء وقد أجمعوا رأيهم على أن يغيروا على

---

(١) هو القائم بملاحظة الأمن فى البلدوعمله عمل الشرطة اليوم راجع فى ذلك : Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) السلطان هنا هو صلاح الدين الايوبى .

(٣) كان السبب فى ذلك أن بلدوين ملك بيت المقدس خرج لتصيد الماشية التى كانت فى طريقها من دمشـــق الى بانياس للرعى ، انظر فى ذلك : Runciman: History of the Crusades, vol. II, p. 419

على حين أن المقريزى : السلوك ٦٦/١ يشير الى أن الصليبيين استغلوا فرصة انشغـــال صلاح الدين ببعلبك وبنوا حصنا فى مخاضة بيت الاحزان ، أما لين بول : S. Lane-Poole : Saladin, p. 157 فيهمل الرأيين ويرجع السبب فى ذلك الى فشل صلاح الدين فى حمل ملك الفرنجة بالطرق السلمية على التراجع عن مشروع عدوانى أعد ضد المسلمين .

(٤) قرية قرب دمشق تحت الجبـــل الذى فى غربها ، هكذا عرفها صاحب مراصد الاطلاع ، ١٥٨/١ ، انظر Dussaud: Topographie Historique de la Syrie, pp. 390-391.

(٥) كان ينوب عن عمه صـــلاح الدين بدمشق وكان موضع ثقته ، وقد مات فى أول جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ ، وســـيرد كثيرا فى صفحات هذا الكتاب ، انظر ايضـــا ابن الاثير : الكامل ٢٠٠/١١ ، والمقريزى : السلوك ٧٩/١ .

بلد العدوّ فى ليلتهم بكرة غدهم ويرحلون عن ذلك المكان ، فصوّب لهم السلطان رأيهم وقال : « نعم الرأى الذى رأيتموه ، والرأى أن تنهضوا فى هذه الليلة وتزمعوا على دخول بلد الفرنج ، فتجمعون ماتخلّف فى مواضعها المتفرقة ، وإذا عدتم سالمين إن شاء الله تعالى رحلنا [٦ ب] صوب البقاع[1] » .

* * *

ذكر وقعة مرج عيون (٢)

وكانت يوم الأحد ثامن[3] محرّم ، ولما نهض المسلمون ليلة اليوم المذكور أصبح السلطان بكرة يومه راكبا ومعه صمصام الدين أجُلْك والى بانياس فى موكب خفيف وجمع كثير ، ووقف على الطريق فوجد فى تلك الغياض سروحا من الأبقار والأغنام جافلة[4] ، وقصَدَه فى تلك الحال راع فأخبره أنه شاهد عسكر الكافر قد عبروا بالقرب على قصد العلافة ، فاستبعد السلطان ذلك وقال : « لو كان ذلك صحيحا لجانا الجاسوس » ، فبينا هو كذلك إذْ جاءه من أوائل العسكر من أخبره بصحة الخبر ، فرجع إلى المخيّم وقت الظهر ، وكان فى اسطبله خيول شتى عتاق وغير عتاق ، فبذلها لخواصه وقال : « اركبوا وأدركوا العدوّ » . وصاح بعسكره وحلقته فسار فيهما موفقا بالنصر ، فأشرف على القوم وهم[5] فى ألف رمح وعشرة آلاف

---

(١) تقع فيما بين حمص ودمشق وهى كثيرة القرى غزيرة المياه ، راجع مراصد الاطلاع ، ٢١١/١ و Dussaud : op. cit. p. 396 et seq.

(٢) فى الاصل «العيون» ، راجع ياقوت : معجم البلدان ٤٨٨/٤ . انظر فى هذه الوقعة Grousset : Histoire des Croisades, t. II, pp. 675-678.

(٣) هكذا أيضا فى المقريزى السلوك ٦٨/١ ، ولكنه « الثانى » فى الروضتين ١٠/٢ ، ويلاحظ أن التوفيقات الالهامية ص ٢٨٨ جعلت أول المحرم من هذه السنة هو الجمعة ويوافق الثامن من يونيو ١١٧٩ م ، راجع Grousset : Histoire des Croisades, II, p. 675.

(٤) Runciman, op. cit. II, p. 420.

(٥) العبارة « الف رمح ... وراجل » فى السطر التالى واردة بالنص فى المقريزى : السلوك ، ٦٨/١ ، س ٢ — ٣ .

مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان فى جملتهم [بادين[١]] بن بارزان ، فبرز فى مقدّمتهم وحملوا حملة واحدة كالجبل العظيم وكادوا أن يظفروا ، وطعن فيها صمصام الدين أجك ، فثبت السلطان أمامهم وردّهم إلى ورائهم فولوا الأدبار منهزمين فركبهم السيف ، فأسروا من كان له أجل حصين ، ودخل الليل ونجا ملكهم هاربا ، فذُكِر أنه حمله أحدهم على ظهره وسرى به تحت الليل ، ورجع[٢] السلطان إلى مخيّمه وقد مضى من الليل أكثره ، ثم أذن بتقديم الأسارى ، فأوّل من قدم منهم « بادين بن بارزان »، ثم قُدِّم « أود[٣] » مقدم [١٧] الداوية الكبير وكان مشهوراً شجاعا شديد البأس، وأحضر « ابن القومصية[٤] » وأخو صاحب جبيل[٥] وكان كثير النهوض إلى ثغور الإسلام ، وأحضر جماعة من مقدميهم الأكابر وقيدوا بالقيود الثقال ، ثم عرض المأسورين فكانوا مائتين ونيفا وسبعين من الفرسان المقدمين سوى من أسَره أسرُه وكان فى خيمته ولم يسمع به ، وسوى من لم يذكر من الأتباع ؛ ثم نقل الأسارى إلى دمشق فاعتقلوا .

فأما ابن بارزان[٦] فإنه[٧] — بعد سنة — بذل فى نفسه مائةً وخمسين

---

(١) هو بلدوين الابلينى Baldwin of Ibelin. صاحب الرملة ، راجع Lane-Poole : op. cit. p. 157.

(٢) عبارة السلوك ١/٦٨٨ س ٤ — ٥ وردت على النحو التالى « وعاد السلطان الى مخيمه وقد مضى أكثر الليل وعرض الاسرى فقدم أولهم » .

(٣) هو المعروف باسم Odo of Saint Amand كبير مقدمى الداوية اذ ذاك ، ويرى البعض أن اندفاعه وطيشه كانا السبب الاكبر فى تلك الهزيمة النكراء ، هذا ويستفاد من مقال كتبه Albon : La mort d'Odon de St. Amand (Rev. de l'Orient Latin, t. XII, pp. 278-288). ان أود هذا لم يمت فى الحبس .

(٤) المقصود بذلك Hugh of Galilee وكانت امه كونتة طرابلس وقد افتدته فيمابعد بخمسة وخمسين ألف دينار صورية كماسيردفى النص أعلاه بعد قليل ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب ٢/٧٦ .

(٥) بلد فى شرقى بيروت ، مراصد الاطلاع ١/٣١٤ ، Dussaud : op. cit. p. 383 وياقوت : معجم البلدان .

(٦) أمام هذا الخبر فى هامش المخطوطة « مبلغ فداء هذا الكلب » .

(٧) من هنا حتى آخر الخبر يتشابه تشابها كبير — مع اختلاف طفيف — مع عبارة العماد الواردة فى أبى شامة : الروضتين ٢/٨

ألف دينار وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، فكان الفقيه [ضياء الدين] عيسى[١] مأسوراً عندهم من نوبة[٢] الرملة فالتزم أن يؤدى من قطيعته المذكورة القطيعة التى عرف بها فكاكه ، وأما « هو »[٣] — ابن القومصية — فإنه افتكّتْه أمه بخمسةٍ وخمسين ألف دينار صورية[٤] ، وأما « أود » — مقدم الداوية — فإنه مات[٥] فى سجنه فطلبت جيفته فأخذوها بإطلاق أسير ، وطال أسرُ الباقين ، فمنهم من هلك فى الأسر ، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان ؛ وكانت لعز الدين فرخشاه فى هذه النوبة اليد البيضاء والبلاء المذكور.

ذكر سبب غيبة (٦) والدى الملك المظفر
— سقى(٧) الله عهوده الرضوان — عن هذه النوبة

وذلك أن سلطان الروم [السلاجقة] قلج أرسلان أرسل فى طلب حصن رعبان[٨] يدّعى أنه من بلاده وإنما أخذه منه نور الدين بغير أمر ،

---

(١) راجع ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ٣/٥٨٥ .

(٢) راجع سيرة صلاح الدين ، ص ٤٢ — ٤٣ ، ونزهة الانظار ، ص١٥٥ ، والروضتين (نشرة د. حلمى أحمد) ج ١ ق ، ص ٦٩٩— ٧٠٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ٢/٥٨ — ٦٣ .

(٣) المقصود بذلك Hugh of Galilee راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٧ .

(٤) وتسمى أيضا بالدنانير المشخصة وقد ذكر القلقشندى ، صبح الاعشى٣/٤٣٧ أنها دنانير يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم وهى معلومة الوزن ، على أحد وجيهها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبوليس الحواريين ، وقد يعبر عنها أحيانا بالافرنتية وأصلها افرنسى .

(٥) كان المتفق عليه أن يطلق سراح «أودو» نظير اطلاق أحد المسلمين ممن أسره ، الا أن «أودو» رأى نفسه اعظم من ان يتساوى به أى شخص من المسلمين مهما علت مكانته، ومن ثم بقى رهين محبسه مما عابه عليه وليم الصورى انظر :
Guillaume de Tyre, Histoire d'Eracles. 29.

(٦) فى شأن هذه الغيبة وحملة المظفر تقى الدين عمر على رعبان يقول ابن كثير «وكان الملك المظفر تقى الدين عمر غائبا عن هذه الوقعة (أى وقعة مرج عيون) بما هو أعظم منها» .

(٧) يستدل من هذا الدعاء على أن المؤلف وضع كتابه بعد سنة ٥٨٧ هـ وهى السنة التى مات فيها أبوه .

(٨) رعبان قلعة بين حلب وسميساط غربى الفرات ، انظر ياقوت : معجم البلدان ٢/٧٩١ مراصد الاطلاع ٢/٦٢١ ، وراجع أيضا دائرة المعارف الاسلامية مادة Klidji Arslan

وأن ولده الملك الصالح قد أنعم به عليه ، فأبى ذلك الملك الناصر صلاح الدين ، فجهز قلج أرسلان عسكراً ونزل على حصاره (٧ب) فندب السلطان الملك المظفر إلى لقائهم بجماعة[1] يسيرة ، وكان جملتهم ثمانى مائة فارس، وكان عسكر قلج أرسلان نيفا وعشرين ألف فارس مجتمعة على النهب والغارة، فسار بمن معه من العدة اليسيرة المذكورة حتى أشرف على عسكر قلج أرسلان ليلا ، وقد تلاحق به من أصحابه نحو من مائتين والباقون فى إثرهم لم يتفق اجتماعهم جملة واحدة ، لأن طريقهم كانت وعرة لم يسيروا معظمها إلا رجّالة ، فلما أشرف عليهم ضرَبتَ كوساته[2] وبوقاته ، فركض بمن معه وخالط القوم ، وذلك فى سوق الربض ، وكان لعسكر قلج أرسلان من فرسانهم ثلاثة آلاف فى حصار الحصن ، فحين وقع الصالح تحادروا عليه وضايقوه ومن معه ، فأشار إلى غلامه بأن يعطيه قنطاريته ، فناوله إياها فحمل عليهم وقال : « أنا الملك المظفر » ثم طعن فارساً فأرداه ، وحمل أصحابُه فى إثره فكسروا فرساناً ، فلما نظر القوم إلى ذلك انهزموا من بين يديه عن آخرهم ، ووقع الصالح بهم فجعل يتبع بعضهم بعضاً وتركوا خيامهم بما فيها من أثقالهم . ومنهم من أصابه بذلك ، وأسر من مقدميهم بذلك جماعة ، فلما أصبح خلع عليهم وأعطى كل واحد منهم فرساً يحمله ، وسيَّر النجب من هناك إلى السلطان والكتب تخبره بما رزقه الله من النصر والظفر بعسكر قلج أرسلان ، ووافق ذلك مامنَّ الله تعالى به على السلطان من ظفره

---

(١) قدرها ابن الاثير : الكامل ١٨٧/١١، وابن الوردى : تتمة المختصر ٨٩/٢ ، وأبو الفدا ، المختصر ٦٥/٣ بألف فارس ، على حين أن أبا شامة : الروضتين ٩/٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ قدراها بثمانمائة مقاتل فقط . والمأثور عن تقى الدين عمر انه كان يفتخر بذلك ويقول « هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا » .

(٢) عرف القلقشندى : صبح الاعشى ٩/٤ الكوسات بأنها صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص ومعها طبول وشبابة يدق بها مرتين فى القلعة كل ليلة ، واذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه ، وذكر أيضا : شرحه ١٣/٤ أن الواحد الذى يستعمل فى ضرب هذه الكوسات يعرف بالكوسى ، انظر أيضا Gaudefroy-Demombynes: La Syrie, Introd., p. LIV, note 3.

بالإفرنج فى « مرج عيون » ، وسارت بذلك البشائر إلى بلاد الإسلام ، وسيرت كلمات الشعراء إليه من أقاصى البلاد وأدانيها . فمن ذلك كلمة أمين الدولة أبى الفتح محمد بن عبد الله التعاويذى البغدادى (١٨) وهو من شعراء الديوان العزيز بمدينة السلام ، سيرها إليه فى السنة المذكورة إلى دمشق ، وهى :

إن كان دينُك فى الصبابة دينى
فقفِ المطىَّ برملتى بيرين
والثم ثرى لوشارَفت فى هُضْبِه
أيدى الركاب لَثَمْتُه بجفونى
وانشد فؤادى فى الظباء معرضا
فبغير غزلان الصريم جنونى
ونشيدتى بين الخيـــام وإنما
غالطت عنها بالظباء العـــين
لولا العدى لم أكْنِ عن ألحاظها
وقـــدودها بحوازن وغصـــون
لله ما اشتملت عليه قبابهم
يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائهة على أترابها
بالحسن ، غانية عن التحسين
خودٌ ترى قمر السماء إذا بدَتْ
مابين سالفة لها وجبين
غادين مالمعت بروق ثغورهم
إلا استهلّت بالدموع شؤونى
إن ينكروا نفَس الصَّبا فلأنها
مرّت بزفرة قلبى المحزون

وإذا الركائب فى الحبال تلفّتت
فحنينهـــا لتلفّتى وحنينى
يا سلم إن ضاعت عهودى عندكم
فأنا الذى استودعتُ غير أمين
أو عدتُ مغبوناً فما أنا فى الهوى
لكمو بأوّل عاشق مغبون
رفقا فقد عسف الفراق بمطلق
العبرات فى أسر الغرام رهين
مالى ووصل الغانيات أرومه
ولقد بخلن علىّ بالمأمون
وعلام أشكو والدماء مطاحة
بلحاظهنّ إذ الجمال ديونى
(٨ب) هيهات مالبيض فى ودّ امرئ
أربٌ ، وقد أربى على الخمسين
ومن البليّة أن تكون مطالبى
جدوى بخيل أو وفاء خؤون
ليت الضنين على المحبّ بوصله
لقن السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بزمامه
علقت بحبل فى الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلاً ، وإن اكتفى
بمعاقـل من رأيه وحصون
وأعدّ الأعداء كلّ مهنّد
ومثقف ومضاعف موصون

سهرت جفون عداه خيفة ماجدٍ
خلقت صوارمه بغير جفون

لو أنّ لليث الهزبر سطاه لم
يلجأ إلى غاب له وعرين

والبحر لو مزجت به أخلاقه
لغدَتْ مياه البحر غير أجونِ

والأرض لوشيبت بطيب ثناه لم
تنبت سوى الخيرىّ والنسرين

والدهر لو أعداه حسن طباعه
ما شان من أبنائه بضنين

قسما لقد فضل ابن أيوب الحيا
بسماح كف بالنضار هتونِ

مخلوقة من سؤدد وندًى . وقد
خُلِقَ الأنام سلالة من طين

يامن إذا نزل الوفود ببابه
نزلوا بجمّ من نداه معين

أضحت دمشق وقد حللت بجوّها
مأوى الطريد وموئل المسكين

وغدت بعدلك وهى أكرم منزل
تُلْقَى الرحالُ به وخير قطين

يُثنى عليك المعدمون بها كما
تثنى الرياض على السحاب الجون

(١٩) لك عفة فى قدرة ، وتواضع
فى عزة ، وشراسة فى لين

قسمت يمينك فى الورى الأرزاق والآ
جال بين منىً وبين منون
وأريتنا بجميل صنعك ماروى الرا
وون عن أمم خلت وقرون
وضمنت أن تحيى لنا أيامهم
بالمكرمات ، فكنت خير ضمين
كاد الأعادى أن يصيبك كيدها
لو لم تكدك برأيها المأفون
تخفى عداوتها وراء بشاشة
فتشف عن نظر لها مشفون
دفنت حبائل مكرها فردَدْتها
تذوى[1] بغيظ صدورها المدفون
وعلمتَ ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرّها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة
فى الغيب يظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم ، وقضى لهم
بالنحس طائرُ جدّك الميمون[2]
فتملّ دولتك التى حكمت لها
الأقدارُ بالتأييد والتمكين

* * *

(١) « تدرى » فى الروضتين ٢/١٠ .

(٢) ورد هذا البيت فى الروضتين ٢/١١٠ على الصورة التالية :

فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم بالنحس طائرهم بمرج عيون

وعلق أبو شامة على هذا بقوله « قلت : هكذا انشده وهو حسن ، وقد كشفته فى نسخة من ديوان ابن التعاويذى : طائر جدك الميمون»

ومنها بعد أبيات يذكر فيها حاله ويصف من كلمته :

واقصد حمى ملك عزيز جاره
سامى الذؤابة شامخ العرنين
واهد الثناء إلى أغر فسيح أقـ
ـطار المحامد بالثناء قمـين

* * *

ذكر النزول على بيت(١) الأحزان

وذلك فى شهر ربيع الآخر من السنة :

ولما أحكم الفرنج — خذلهم الله — بناء بيت الأحزان فكر(٢) السلطان فى نفسه وندم(٣) (٩ب) على ما فرّط فى تركهم فى مبدأ الأمر ، فراسل الفرنج على أن يهدموا الحصن فإن ضرره يكون على الإسلام فقالوا(٤): « لا سبيل إلى هدمه » ، فراجعهم على أن يشرعوا فى هدمه « وإلا سرْتُ إليكم بعساكر الإسلام » . فلما تحققوا عزمه وعلموا أن لا بدّ له من ذلك قالوا : « إن كان لابد من ذلك فأعطنا ماغرمنا عليه من الأموال ، فإنا قد غرمنا عليه مالا كبيراً » ، فبذل لهم أولا ستين ألفا فلم يقبلوا ، فبلغ معهم إلى أن بذل لهم

---

(١) عرف مراصد الاطلاع ٢٣٦/١ بيت الاحزان بأنه بلد بين دمشق والساحل ،وقال زعموا أنه كان مسكن يعقوب ـ عليه السلام ـ أيام حزنه على يوسف .

(٢) « افكر » فى الاصل .

(٣) ذكر البعض أنه لما بنى الفرنج مخاضة بيت الاحزان هذه قيل لصلاح الدين انه منى أحكم هذا الحصن تحكم الوهن من بلاد الاسلام ،فقال : « اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس » راجع ابن واصل: مفرج الكروب ٧٢/٢ .

(٤) فى الاصل « فقالوا وان » .

مائة ألف دينار » ، فلما سمعوا ذلك داخلهم[1] الطمع .

وكان سبب ذلك الداوية ، فإنهم كانوا يمدّون مَنْ بالحصن بالأموال والنفقات وجميع مايحتاجون إليه ، فلما رأى السلطان [ذلك] جمع الأمراء من أصحابه وأولى الرأى والمشورة وعرفهم ماذكره الفرنج من امتناعهم وطمعهم وهل يزيدهم مالا ، فقالوا : « الصواب أن تعطيهم رضاهم من المال ويهدم الحصن » ، فقال لهم . « ما أفعل شيئاً ولا أبرم أمراً إلا بمشاورة ابن أخى الملك المظفر عمر » ، وكان [المظفر] فى حماة قد شرع فى إصلاح قلعتها وتحصينها ؛ فأرسل [السلطان] إليه جماعةً من الأمراء إلى حماة ليحضروا عنده ويستنيروا به ويأخذوا رأيه ويعرّفوه مايكون عليه العمل ، فلما وصل المنفذون إلى حماة حضروا بين يديه وسلموا إليه كتاب السلطان وشاوروه فيما أُرسلوا به فقال : « ما أرى هذا رأياً صالحاً » . ثم كتب إلى السلطان كتاباً يذكر فيه : « إن هذا الرأى الذى قد أزمعْتَ عليه ليس بشىء ، وإن الله تعالى يسألك عن إعطائهم هذا المال » ، وأنه قادر على المسير (١١٠) إليهم ، « والرأى أن تصرف هذا المال إلى الأجناد وترغبهم فى الجهاد ، وتسير بعساكرك وتنزل عليه والله تعالى فى معونتك ونصرتك » ، ثم خلع على الجماعة الذين جاءوا إليه وأمرهم بالسير إلى السلطان ، فلما وصلوا إليه سلّموا إليه الكتاب وعرّفوه ماقال لهم شفاهاً فقال : « هذا هو الرأى السديد » ، ثم أحضر الأموال وأرسلها إلى سائر التركمان والأجناد فى البلاد ،

---

(١) يبدو من المخطط العام للصليبيين فى الشام فى ذلك الوقت أنهم كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على فتح عدة جيوب حربية فى الجبهة الاسلامية ، فتوجهت أكثر كتائبهم الى دمشق فى ذى القعدة سنة ٥٧٤ هـ فكانت النصرة لجند صلاح الدين بقيادة ابن أخيه فرخشاه ، ثم اله فى تلك السنة أيضا اغار صاحب انطاكية على شيزر وصاحب طرابلس على كثير من التركمان ، لذلك سير صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر الى حما قوابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حمص لحفظ البلاد ، راجع ابن الاثير : الكامل ١١/١٨٥ .

وأنفذ التخوت والخلع والتشريفات والخيل إليهم حتى جاءوا إلى سائر التركمان الذين هم غربى الفرات وشرقيها ، وسلّموا الأموال إليهم والخلع وماعدا ذلك ورغبوهم فى الجهاد ، فسارعوا إلى أمر السلطان وجاء منهم خلق كثير ، وكتب إلى سائر الأطراف والأمكنة ، فاجتمع عنده من الأمراء والأجناد والتركمان ألوف كثيرة ، وسار والدى الملك المظفر من حماة بجماعته متوجها إلى دمشق فكان وصوله إليها فى أول يوم من شهر ربيع الآخر ، فسُرّ السلطان بقدومه وخرج لتلقّيه ، وأعدّ التركمان ما احتاجوا إليه من الدقيق وغيره وجميع ما احتاجوا إليه ، ثم أمر الناس بالرحيل فخرج فى جيش كالبحر الزاخر ، وكان خروجه من دمشق يوم الخميس[1] خامس شهر ربيع الآخر ، ونزوله على الحصن يوم الثلاثاء حادى عشره قريبا منه[2] ، وكان جميع من حوله قد احتمى فيه وغلقوا بابه .

ثم[3] إن السلطان ركب بكرةً إلى ضياع صفد ، وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية فأمر بقطع كرومها وحمل ماهناك من الأخشاب لعمل المنجنيقات ، وعاد إلى المخيّم بعد الظهر (١٠ب) وخرج بعد العصر وجمع الأمراء وعارض برأيهم رأيه ، فقال له عز الدين جاولى الأسدى : « تأذن لنا فى الزحف قبل الاشتغال بنصب المجانيق حتى نذوق قتالهم ونستعرض أحوالهم ، فربما تلوح لنا منهم فرصة » ، فقال السلطان : « استخيروا الله عزّ وجلّ وافعلوا مابدا لكم » ، فمشى الناس إلى الزحف ودنوا من الباسورة[4] ،

---

(١) الوارد فى التوفيقيات الالهامية . ص٢٨٨ أن أول ربيع الآخر عام ٥٧٥ (وهى السنة التى تتناولها هذه الصفحات) كان يوم الاربعاء .

(٢) فى الاصل « من منه » .

(٣) على الرغم من ان خبر هذه الحملة وارد بصورة مشابهة لهذه فى أبى شامة : الروضتين ٢/١١ ، الا أن المضمار يمتاز فى هذه الناحية بايراده جزءاً من الحديث الذى دار فى المجلس ، مع أن ما ورد فى الروضتين كان على لسان العماد .

(٤) Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, p. 248, et note 6.

فتخاذل من كان بها من الفرنج وانهزموا ودخلوا الحصن وأغلقوا الأبواب ، وأحاط الناس بالحائط ، وملك[١] والدى الملك المظفر الباسورة برجاله وباتوا طوال الليل يحرسون ، والفرنج على شرافات الحصن يرمون بسهامهم ويتبعونها بشهب النيران ، وأصحابنا على الحفاظ ، فخرج جماعة والسلطان يمدهم وينجدهم ، وكان بعض المماليك[٢] قد سمع من وراء الباب صوت الحجارة ، فعلم أن الفرنج يبيتون خلف الباب وأنهم قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليحموا[٣] بها أنفسهم ، فعلم حينئذ ضعفهم ، فجاء [المملوك] وأعلم والدى ، فتيقن [والدى] أخذ الموضع وأعلم السلطان بذلك ، فبات الناس تلك الليلة فى أشدّ جهاد .

ثم إن السلطان فرق البناء[٤] على الأمراء ، فأخذ عمى عزالدين فرخشاه الجانب القبلى وجمع عليه النقابين والحجارين ، وجاء الجاندارية[٥] وراء

---

(١) يشير المؤلف لأول مرة فى هذا الخبر الى وجود أبيه الملك المظفر تقى الدين عمر فى الحصار وقد تثير هذه الاشارة الشك فى ان اكباره لابيه هو الذى جعله يذكره هنا ، وقد يؤكد هذا الشك خلو ابن الأثير : الكامل ١١/١٨٩ من الاشارة اليه ، على أن ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٨١ قد نص على وجوده .

(٢) فى الأصل « الممالك » .

(٣) فى الأصل « ليحمون » .

(٤) المقصود هنا بالبناء هذا الحصن .

(٥) عرف Gaudefroy-Demonbynes, op. cit. Intr. P.C. « الجنـــدار » ، وفرق بينه وبين « الجمدار » بأن الاخـــير هو خادم حجـــرة السلطان ويساعده فى عمله البشمقدار ، ويشير ابن خليل الظاهرى فى زبدة كشف الممالك (ص ١١٤) الى أن وظيفته تدخل فى عداد أمراء الطبلخاناة ، هذا وقد أورد المقريزى عبارة نقلها عن المقصد يستدل منها على أن وظيفة الجندار هى أمير طبلخاناة ، انظر فى ذلك Quatremere, Hist. de Mam. t. I., p. 114 .note 15

الجفاتى[١]، وأخذ السلطان النقب فى الجانب الشمالى وأنهض إليه الحجارين .

وأخذ ناصر الدين محمد بن شيركوه بقربه نقبا ، ورتب السلطان الرماة على الخندق يمنعون الفرنج من إخراج رءوسهم من وراء ستائر السور ، فكم من جريح وطريح حتى استقر النقابون فى مواضعهم ، فمازالت المعاول تعمل والصخور تتخلخل حتى استقامت (١١١) النقوب ، فما انقضى يوم الأحد حتى تم النقب السلطانى ، وعُلّق وحشى الحطب ليلة الاثنين وأحرق فظُنّ أنه يتضعضع ؛ وكان النقب فى طول ثلاثين ذراعا وفى عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرض السور تسعة أذرع . فأصبح الناس يوم الاثنين والسور على حاله لم يتضعضع ، فأشفقوا لذلك وضعف يقينهم إذ لا سبيل لهم إلاّ تعميق النقب وتوسيعه للنيران الملتهبة فيه ، فأخرج السلطان صرّة فيها ثلاثمائة دينار مصرية وتركها على يد عز الدين جاولى وقال : « من أتانا بقربة من الماء أعطى دينارا » ، وكان الماء بقربه ؛ فرأيتُ الناس يتسابقون بالقِرَب والأوعية حتى أطفؤوها وبرد ما كان فى النقب منها ، فعاد النقابون وعمقوه وعلقوه وحشوه واستظهروا فيه يومى الثلاثاء والأربعاء ، ثم أحرقوه .

ووصل فى ذلك اليوم أن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية[٢] بجمع كثيف

---

(١) اذا صحت قراءة هذا اللفظ على هذه الصورة فلعل المؤلف يقصد بها «الجفتة» التى عرفها القلقشندى ، صبح الاعشى ٦/٤ فى ذكر رسوم الملك وآلاته بأنها « اثنان من أوشاقية اسطبل السلطان قريبان فى السن ، عليهما قباءان أصفران من حرير بطراز من زركش ، وعلى رأسيهما قبعتان من زركش وتحتهما فرسان اشهبان برقبتين وعدة ، يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة » .

(٢) عرف مراصد الاطلاع ٨٧٨/٢ — ٨٧٩ طبرية بأنها بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بها وهى من أعمال الاردن فى طرف القدس بينها فى المسافة وبين دمشق ما بينها وبين بيت المقدس ، انظر Dussaud: op. cit. p. 3, note 5. ويستفاد مما ذكره المؤرخ الصليبى Guillaume de Tyre, Nos. 27-30 انه قد ترامى الى سمع =

وعالم كثير ، فماج الناس وأسرعوا من الضياع ، فلما أصبحنا يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور وقد تعالى النهار وإذا بالجدار قد انقض فتباشر الناس وضجّوا بالتكبير والتهليل ، وتسابق الناس إلى الثلمة يركب بعضهم بعضا ، وكان الفرنج قد جمعوا من وراء ذلك الجدار الواقع حطبا ، فلما سقط رموا[1] به ناراً ليحموا بها أنفسهم فلما أن سقط الجدار دخلت الريح من تلك الثلمة عادت النار عليهم وأحرقت البيوت الدانية منها ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد منها وصاحوا : « الأمان » ، وتسلّق الناس الجدار وأطلقوا أيديهم بمن فى الحصن فقتلوا وأسروا وقيّدوا ، وجلس السلطان وأحضر (١١ب) عنده الأسارى ، فمن كان منهم مرتداً أو راميا أمر بضرب عنقه ، وكان فى الحصن من المسلمين فى الأسر نحو من مائة أسير قد جمعوهم للعمارة وقطع الحجارة ، واستبشر السلطان بما منّ الله تعالى عليه من النصر . وفرح الناس .

واتفق لسعادته أن رسول القومص كان عنده فى تلك الساعة وهو يعاين ما يجرى على أهل ملّته من البلاء والهلاك ، وكان الحرشديداً فأنتنت أشلاء القتلى ، فأمر السلطان بتسيير الباقين من الأسرى إلى دمشق ومبشراً للناس بما أتاح الله تعالى للمسلمين من الفتح والظفر ، وأقام فى مخيّمه والأموات قد جافت وقال : « لا أبرح من مكانى حتى أهدم الموضع » فقسّمه أذرعاً على الأمراء ، ولم يزل مكانه حتى كمل خرابه ، وكان قد حفر الفرنج فى أعلى التل جُبًّا واسعا وبنوه بالحجارة وأحكموه حتى نبع معينه ، فأمر [السلطان] بهدمه وطمّه ، ورجع إلى دمشق مؤيداً منصوراً .

= صلاح الدين أن جماعة من الفرسان الفرنسيين بقيادة هنرى الثانى دوق شمبانيا قد وصلوا نجدة لصليبى الشام مما حمل صلاح الدين على المبادرة للاستيلاء على الحصن انظر ايضا Runciman, op. cit. II, p. 421. Grousset : Histoire des Croisades.

(١) فى الأصل « ارموا » .

وكان المقام على الحصن — فى أيام فتحه وبعدها — أربعة عشر يوما، وحين دخل الناس إلى دمشق مرض أكثر الناس ممّا أصابهم من نتن ذلك الموضع ، ومات جماعة من الأمراء .

ولما استقر السلطان بدمشق أتته التهنئة من الناس من كل مكان بفتح الحصن المذكور وما رزقه الله تعالى من النصر والظفر بالعدوّ ، وامتدحه جماعة من الشعراء ، فكان من جملتهم أبو الحسن على بن محمد الساعاتى[1] الخراسانى من أهل دمشق ، امتدحه بهذه القصيدة :

بحدّك[2] أعطاف القنا تتعطف
وطرف الأعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدًى فى ظلمة الشك[3] ثاقب
وسيفٌ ، إذا ما هزّك الله مرهف
(١٢ ا) وقفت على حصن المخاض وإنّه
لموقف حق لا[4] يوازيه موقف
فلم يبْد وجه الأرض بل حال دونه
رجال كآساد الشرى وهى تزحف[5]

---

(١) كانت وفاته فى رمضان سنة ٦٠٤ هـ القاهرة ، راجع ترجمته فى ابن خلكان : وفيات الاعيان ٧٣/٣ — ٧٤ ، : شذرات الذهب ابن العماد الحنبلى

(٢) ورد هذا الشطر فى ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « بجدك أعطاف القنا قد تعطفت » ويلاحظ أن القصيدة اختلفت باختلاف النسخ التى ذكرتها ،انظر أباشامة : الروضتين ١١/٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ٨١/٢ ، انظر الحواشى التالية

(٣) «الليل » فى ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ ، و « الشرك » فى مفرج الكروب ٨٤/٢ ، والشطر الثانى « وسيف هدى فى طاعة الله مرهف » وارد فى الروضتين ١١/٢ ، وما ورد أعلاه بالمتن كان قد ورد فى النسخة الاصلية من مفرج الكروب ولكن الدكتور جمال الدين الشيال آثر عليه رواية الروضتين .

(٤) فى مفرج الكروب ٨٤/٢ « ما » .

(٥) فى البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « ترجف » .

وجرداء[1] سلهوب وردع مضاعف
وأبيض هنـــدى ولدن مثقف
وما رجعت[2] أعلامك الصفر[3] ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا[4] من أعاليه صليب ربيعة
وشاد به دين حنيف ومصحف

ومنها :

أيسكن أوطان النبيّين عصبة
تمين لدى أيمانها وهى تحلف ؟
نصحتكموا ، والنصح فى الدين واجب .
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف .

* * *

ذكر غارة عز الدين فرخشاه على صفد

وذلك فى ذى القعدة من السنة المذكورة :

كان عمّى عز الدين فرخشاه ذا رأى سديد وفعال حميدة، ولما أراد الله تعالى أن يذل أهل صفد بغارته تلك جمع من رجال بانياس وما حولها من الأعمال من جرت عادته بالحرب . فصبح صفد صباح الأربعاء ثامن عشر الشهر فسبى وسلب وغنم غنيمة كبيرة . وتوغّل عليهم فى الربض فأحرق منه مواضع شتى ، وكان قد أعجلهم عن الالتجاء إلى القلعة ، فأسر منهم جماعة وأثخن فيهم الجراح وعاد منصوراً إلى المخيم السلطانى .

* * *

(١) فى البداية والنهاية . شرحه « وجود سلهوب ولدن مهفهف » .
(٢) « رفعت » فى مفرج الكروب ٨٤/٢ .
(٣) فى ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « البيض ساعة الا غدت .... » .
(٤) « كنائس أغياد صليب » فى ابن كثير، شرحه .

فصل من كتاب عن السلطان إلى الرسول ببغداد فى المعنى : ورأينا أن البدار إلى الحلول بدارهم، وإحلال الخزى بهم فى تعجّل دمارهم، فرصة لفريضة الجهاد منتهزة ، وعدة من الله تعالى فى قهر (١٢ب) عداته مستجزة، وغنيمة للإسلام محرزة ، ونصرة فى أقرب أمد بأنجح امل بعون الله موجزة، لاسيما والصوارم قد قلقت فى أغمادها ، واللهاذم قد علقت عرى اجتهادها فى جهادها ، والعزائم قد رمضت مضارب مظانها ، والسوابق قد ضمرت فى مضمارها ، شوقا إلى إخرابها ، والبيض والسمر قد اهتزت أعطافها إلى الانتشاء من طلاء الطلى ، والارتعاء فى اكلاء الكلا ، والاكتساء من النجيع القانى محمرّ الحلل والحلى ، وألسنة الأسنة قد خطبت عقائل المعاقل ، وخطبت على أعواد العوامل الذوابل، وطيور السهام المبرّية المريشة إلى أوكارها من المقل نازعة نازية، والأقدار بما تجرى به من نصرة الإسلام زاهية ، والمنايا بأمانى المغرورين من أهل الشرك هازية ، وهممنا العالية بدين الدين متقاضية ، وإلى حاكم القضاء فى اقتضائه مقاضية، وهذه سَنَةٌ قد هبت فيها النصرة من سِنَتِها، ومحت سيئة الليالى بحسناتها ، وبلغت نعم الله تعالى فيها منتهى منّتها ، وأظهرت فرصة الانتهاز لها آية مكنتها ، ومما يبرهن على هذا القول ، ويبهر الأنام بشكر هذا الطول ، مقدّمة فى النصر يدل على أن نتائجها الفتوح الأبكار، وباكورة فى الظفر سمح بها القدر تبشّر بأن جرت بمساعفتنا الأقدار، ، وذلك أن والدنا[1] عز الدين فرخشاه — أحياه الله تعالى وأبقاه — نهض من العسكر برأس الماء فى الحاضرين بعسكرنا عنده ، واستصحب رَجّالَه بانياس معه (١٣ا) وأغار على صفد بكرة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة عند سلخ الصباح ، « فساء[2] صباح المنذرين ، وكانوا فى مساكنهم غارّين، وبحصانتها مغترّين ، فأذن إقدامه بشت شملها ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وسقى عطاش البيض وظماء الظبى من وِرْدِ وريدهم وروّاها ،

---

(١) فى الاصل « ولدنا » والارجح هو الصورة التى أثبتناها عليها فى المتن وذلك اكبارا من المؤلف لعمه وتعظيما لمكانته وانزاله اياه منزلة أبيه .

(٢) اشارة الى قوله تعالى « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » ، سورة الصافات ٣٧ : ١٧٧ .

وأحرق أرباضها فدمدم[١] عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، وأعجلهم عن الالتجاء إلى القلعة ، والاحتماء بالتلعة ، فسفح ذلك السفح دماءهم ، وسبى ذراريهم ونساءهم ، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل أحرق ديارهم ، وأشعل تلك الأماكن ناراً ، وأدركتها دعوة نوح « رَبِّ[٢] لاتَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِن الكَافِرِينَ دَيَّارا »، فأعاد عليهم ليلا ثانيا بُمْشَارين : من نقع ودخان ، وأقام فيها المأتم بنكايتَيْن: من أسر وإثخان، وعاد إلى المخيم مشكور المخيم ، موفور النعم ، ظاهر الراية ، باهر الآية ، غانم الجند ، غالب الجدّ ، كريم الظفر ، حميد الأثر ، وقد كفّ كفّ الكفر . وهد ركن النكر ، وسفرت وجوه الإسلام بهذه البشرى بشرا، وطابت قلوب المؤمنين وطابت أرجاء الرجاء بأرج نجاحهم بشرا ، فهذه صفة صفد عند النهضة إليها ، والإشراف عليها ، فكيف والسيوف قد طاب ريّها من طبرية ، وعاينت هى وأخواتها منا البلية ، والقدس ينتظر إقدامنا ، ويستشرف اعتزامنا ، ونأمل من الله أن ينجز ميعاد نصره ، ويفتح لنا البلد الموعود بحصره ، فحينئذ نهيّء سلك الساحل وتبدد عقوده ، ونستلخص من أيدى المشركين بعون الله تعالى حقوقه وحدوده .

* * *

وفيها (١٣ ب) توجّه أبو يعقوب يوسف[٣] بن عبد المؤمن بنفسه إلى بلاد إفريقية ، ففتح قَفصَة[٤] وحمل واليها[٥] على بن [المعز بن] المعتز ومسعود بن زمام [أمير العرب] ورجع إلى المهدية .

* * *

---

(١) اشارة الى قوله تعالى « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » سورة الشمس ٩١ : ١٣٥ .

(٢) قرآن كريم ، سورة نوح ٧١ : ٢٦ .

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ٦/١٣٠ — ١٣١ وقد جعل وفاته فى سنة ٥٨٠هـ على حين أدرجه ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/٢٦٤ ممن ماتوا سنة ٥٧٨ هـ ، أما أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ٣/٦٧ فقد جعل ٥٨٦ هـ هى سنة الوفاة .

(٤) الضبط من البغدادى : مراصد الاطلاع ٣/١١١٣ وقد عرفها بأنها بلدة « صغيرة فى طرف افريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير » .

(٥) اكتفى ابن خلكان ، شرحه ، بالاشارة الى فتحه مدينة قفصة دون أن يذكر واليها ، لكن راجع هذه القصة بتفصيل أكبر فى ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٠ — ١٩١ ، والاضافة منه .

واقعة شرف الدين قراقوش المظفرى

وفى هذه السنة[١] كان خروج شرف الدين قراقوش إلى ناحية طرابلس وحدّ نفوسة ، ووصل إلى السويقة فى اليوم الرابع من صفر من السنة المذكورة وتلقّاه أمراء ذباب[٢] حميد بن جارية وكان عظيمهم ورئيسهم المطاع ، وشكر بن ثاقب ، وبدر بن هدية ، وفرج بن منبه ، وعلى بن طلحاب ، وثائر بن روق ، وحبّوس بن جماز ، وجميع بن موسى ، ومناس بن عمرو ، وعريف بن سنان وجماعة من مقدّميهم يطول بذكرهم الكتاب ، وأقاموا وإيّاه بالسويقة عشرة أيام يستحضرون القبائل من ذباب ويستحلفونهم على الخدمة والنصح ، وسار وإياهم [حتى][٣] نزل برّ ليطن ، وهى قصور حسنة على مرحلة من السويقة فى وطأة كثيرة الزيتون وعيون الماء ، ورحل منها فنزل الطابية وأقام بها يومين ، ورحل عنها فنزل « لَبْدة »[٤] وأقام بها ثلاثة أيام ورحل عنها فنزل مسلاتة — وهى جبل إلى ناحية نفوسة — فأقام بها يوما واحداً ، ونزل منها إلى الوطا الذى لبلاط طرابلس ، وانهالت عليه دباب من كل مكان حتى صار فى خمسة ألف منهم ، ومعه من أصحابه أربعمائة فارس أتراك وأكراد وأكادش ،

---

(١) جعل ابن الاثير بداية خروج قراقوش فى سنة ٥٦٨ هـ تحت عنوان « ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها »، على أنه يلاحظ أن ابن الاثير اغفل هذا الخبر الذى ذكره صاحب المضمار .

(٢) أمامها فى هامش المخطوطة العبارة التالية « بفتح الدال المهملة وتشديد الباء الموحدة » .

(٣) غير واودة فى المخطوطة وانما اضيفت لبستقيم المعنى .

(٤) الضبط من البغدادى : مراصد الاطلاع ١١٩٦/٣ حيث عرفها بانها مدينة بين برقة وافريقية ، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة : أو حصن من بنيان بالاجر والحجر ، راجع أيضا ياقوت : معجم البلدان .

وكان ناصر الدين قد جمع زغب وانحاز إلى جبل نفُوسة[1] إلى ناحية ماعرمس، وترك شرق جبـــل نفوسة خوفاً من شرف الدين ، ولم يزل شرف (١٤١) الدين مقيما بتلك النواحى أربعة عشر يوما ، وتقدّم إلى وادٍ يقال له محسن فنزل فيه وقلعة أم العز مطلة عليه ، فأقام به يومين ثم ارتحل بعجلة حميد بن جارية ولزّه كثيراً فى المصاف .

وبعد أن جرى بينه وبين حميد كلام كثير من جملته أن قال له شرف الدين: « يا أمير ، إنما قصدى أن أستفسد جماعة من الأتراك الذين عند إبراهيم ويقلّ أصحابه ونقوى عليه » ، فقال له : « يا شرف الدين ، أنا سلطان ، إن أنت أقمت ولم تتقدم علمت أنك وصاحبك متعاملان علينا وتريد أن تصالحه وتصالح زغب ، وتكونون كلكم علينا يداً واحدة » . فقال له شرف الدين : « أرحل لأجل هـذا الكلام ، غير أنك سترى أصحابك وقد تفللوا عنك وعادوا عليك وعلينا إن جرى لنا أيسر سبب » .

وكان شرف الدين خائفا من أصحاب المبارز لئلا يخامروا ، فأراد أن يتوقف حتى يستفسد من أصحاب إبراهيم جماعة تكون خيراً له منهم وما يبقى عليه باس ، والذى خافه وقع فيـه لأجل استعجال حميد له ، فسار بدباب ليلته ، ونزل إبراهيم وادياً يقال له أرقطين وأصبح شرف الدين بجمعه مقابلا له ، فركب العسكران ووقع المصاف ، وحملت دباب على زغب فتأخرت قليلا ، ووقف إبراهيم — وكان فى القلب — وقوفاً جيداً ، وكان عالماً بإقدام شرف الدين ، وأنه إذا حمل لا يرد رأس فرسه ، فألبس تشاهيره[2] لغلام له وأركبه فرساً كان له أشهب وتركه واقفا فى موضعه ،

---

(١) انظر عنه ياقوت : معجم البلدان ٤/٨٠٠ ، مراصد الاطلاع ٣/١٣٨٢ .

(٢) التشاهير أشرطة قد تصغر أو تكبر يزين بها صدر الحصان ، راجع
Dozy: Supp. Dict. Ar.

وحاد عن وسط الطلب[1] الذى له .

قال شرف الدين عندما وقف طلب إبراهيم وسأل عن حليته وإيش ملبوسه وعن (١٤ ب) فرسه الذى هو راكبه فعرفوه بذلك فقال لمن يثق به : « لا بد لى من إبراهيم » ، فحمل وتبعه من أصحابه أربعون فارساً إلى أن أخرق طلب إبراهيم وزعزعه عن مكانه الذى كان فيه ، ولحق صاحبَ الحصان الأشهب الذى عليه تشاهير إبراهيم ، فطعنه فأرداه عن فرسه وهو يظن أنه إبراهيم ، فلما وقع قال له : « زنهار يا خوند » ، فقال له : « ما أنت إبراهيم ؟ » ، فقال : « لا » ؛ فبصق عليه وقال : « شُهْ عليك » وانحرف .

وكان أصحاب المبارز سبعة نفر قد طلبوا التقفيز ، ومنعهم حضور شرف الدين معهم فى الطلب ، فلما حمل وخلا لهم الموضع قفّزوا الجمع ومن معهم مرة واحـــدة وكانوا يزيدون على مائة فارس وصاحوا : « ناصر الدين يا منصور » ، وصاروا قريباً من طلبه ، فردوا رؤوس خيولهم إلى ناحية القتال ، فتراجع أصحاب إبراهيم وهم دباب وقد قفزوا ، فظنوا أن الجميع يفعلون[2] كما فعل أولئك ، فانتشرت دباب وهم فى خمسة ألف فارس وطلبتها زُعب ، فقلعت منهم جماعة ووصلوا إلى أثقال شرف الدين فانتهبوها وانتهبت معهم أيضا دباب ما قدرت عليه .

ولما رأت الأتراك ما فعلته دباب خافوا القتل : فقوم قفزوا ، وقوم أخذوا ، وصارت الكسرة على شرف الدين وعاد فلم يجد ثقلا ولا شيئا ،

---

(١) قصد بهذا اللفظ فى بداية اطلاقه الامير الذى يتولى قيادة مائتى فارس فى الحرب، ثم تطور مدلوله فأصبح يطلق على الفرقة من الجيش ، انظر Dozy : op. cit.

(٢) فى الاصل « يفعلوا كما فعلوا أولئك » .

وكان له من الأثقال شيء عظيم ، ولقد حدّثنى من أثق به أن شرف الدين حلف له بالله تعالى أن الذى كان تحت ثقله لنفسه ألفا وثلاثمائة جمل ، وأما الأتراك فللواحد أربعون جملا ، وثلاثون جملا ، وأقل وأكثر .

وأما شرف الدين فإنه رجع إلى ناحية محسن ومعه (١١٥) مائة وأربعون فارسا من أصحابه فحسب ، كل منهم عليه درعه ولامة حربه وفرسه ، ولم يبق لواحد منهم شيء يلبسه ولا يأكله ، وبقى حميد معه ما زال ، فقال له : « يا أبا عسكر ، كيف رأيت حديثى وما فعله أصحابك وقبيلتك ؟ غدروا بنا ، وأخذوا مالنا ودوابنا ، وقد حضرت لنصرتهم » ، ولم يقدر أن يقول له أكثر من هذا ، فقال له حميد : « لقد غدر الملاعين ، والله تعالى ينتقم منهم ولا بد من دائرة تدور عليهم » . وكان حميد شجاعا بطلا فارسا متكلما مؤلا ، وبات بمحسن ، فأحضر له حميد ومن كان فيه[1] من العرب من دباب ما أكلوا ، وردّ عليه إنسان خيمةً كانت لبعض أصحابه أخذها فى جملة ما أخذه فضربوها له ، وأصبح راحلاً طالبا طرابلس المدينة نفسها ، وقد ثاب إليه فى الليل من أصحابه قريب من أربعين فارسا ، وصار أصحابه يتواصلون إليه ، منهم مَن أطلقه إبراهيم ، ومنهم من كان منحازاً فوصل إليه ، ونزل على تَاجَرَة[2] — بلد قريب من مدينة طرابلس — فتحها وأخذها ، فنهب منها أموالاً عظيمة .

فلما رأت زعب أن أصحاب إبراهيم لا يبقى منهم أحد أشاروا عليه بأن ينفذ إلى شرف الدين ويصالحه ويعطيه شرقى نفوسة ويأخذ غربيّه ، فعلم

---

(١) أى فى جبل محسن .

(٢) فى الاصل « ماجورة » ، ويوجد أقرب لهذا الاسم كلمتان احداهما الواردة أعلاه فى المتن والتى عرفها مراصد الاطلاع ٢٤٨/١ بأنها بلدة صغيرة بالقرب من ســـواحل تلمسان ، أما الكلمة الاخرى فهى تاجونس وهى اسم قصر على البحر بين طرابلس وبرقة. ويوجد بلدة اسمها « تاجوزة » ولكننا لم نعثر عليها فى معاجم البلدان العربية .

أن فى ذلك المصلحة ، فنفّذ إليه وراسله فى المصالحة ، ولم تزل المراسلة بينهما إلى أن استقر أن يأخذ شرف الدين مَقْرَة[1] وعربان وقلعة أم العز ويفرن وسماح ، ويكون من سماح إلى غربى نفوسة لإبراهيم ، ومهما فتح كان بينهما ، فاختلفا على ذلك ، وأطلع شرف الدين نساءه إلى قلعة (١٥ب) أم العز ، وبقيت قلعة تيركب لابراهيم ، وصار شرف الدين فى الوطا يأخذ البلاد : أخذ دوّاره وزواغة[2] ولمايه وسيرة ، فى كل واحدة منهن بلاد كبيرة ، وأقام باقى سنته فى بلاد طرابلس ، وأمنت دباب من غارة ابراهيم فصارت فى كل وقت تسرق أصحابَ شرف الدين ، ومن لقوه من الأتراك منفرداً قتلوه ، وعلم شرف الدين غدرهم ونحسهم .

وكانت زغب قد غرّبت بعد أن قالت لابراهيم : « من الرأى أن تغرّب معنا ، فإن شرف الدين فى قوّة وهو قليل الغدر ما يأخذ لك شيئا من بلادك ، وتملك فى الغرب مواضع وتأخذ أموالا ، إلى أن يتبيّن شرف الدين نحس دباب وغدرهم فيعود إلى مصالحتك والاتفاق أنت وهو ونحن ، ونخرج دباب من البلاد فأبى عليهم » ؛ فمضوا بعد أن ودّعوه وداع من لا يعود يلتقى .

فلما أحسّ شرف الدين — كما ذكروا — بغدر دباب ونحسهم وأنهم قد أمنوا من زغب وإبراهيم عزم على التغريب إلى دمّر وقطماطة وزريقا وقابس وما إلى تلك البلاد وتوجه إلى دمّر ، وذلك فى مستقبل سنة ست وسبعين . وسنذكر قصته فى مكانها إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الضبط من مراصد الاطلاع ١٢٩٩/٣ ، حيث عرفها بأنها مدينة بالمغرب فى برافريقية قريبة من قلعة بنى حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ .

(٢) لعلها « زغادة » التى قال ابن عبدالحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٦٦٧/٢ فى تعريفها انها بلد فى جنوبى افريقية والمغرب.

[و] فيها[1] عزل سليمان بن جاووش عن نيابة الوزارة ، وسبب ذلك أن أستاذ الدار أبا الفضل كان يكرهه فحسّن للخليفة عزله وقال : « إن هذا رجل قد كبر وعجز عن التدبير للدولة ، فتقدم إليه يُستبدلّ به من شاء » ، فتقدم أستاذ الدار إلى مقرب الدين بن بختيار بإحضار أبى المظفر هبة الله بن محمد بن البخارى ، فأحضره ليلاً إلى دار الخليفة ، فبقى فى الدار ثلاثة أيام (١١٦) ولا يعلم أحد ؛ ثم أنفذ فى اليوم الثالث فأمر بعزل سليمان بن جاووش فعزل من الديوان العزيز ، وركب ابن البخارى فجلس فى الديوان نائب وزارة ، وأفردت له الدار التى كانت لابن هبيرة فى المطبق[2] ، فكان لا يخرج عن أوامر أستاذ الدار ولا ينفرد بأمر دونه .

* * *

وفيها تراخت الأسعار جداً ، وكثرت الأمطار ، وأخصبت البلاد ، ونمت الزروع . .

وفيها أمر الخليفة بالخلع والتشريفات على الأمراء وأرباب الدولة ، وضاعف أرزاق المماليك وغيرهم .

وفيها أمر بإخراج السرادق الشريف ، وكان سرادقا عظيما لم يعمل مثله ، وكان من الأطلس المختلف الألوان ، وأمر أن يُضرَب [السرادق] عند الكشك الجديد قريبا من الميدان ، وأن يُخْرِج الأمراء والمماليك وأرباب الدولة خيامهم فتضرب هناك ، وتقدم إلى أرباب الدولة أن يتأهبوا للركوب فى الخدمة الشريفة وأن يحضروا إلى باب النصر ؛ وركب الناس لامتثال الأمر وذلك فى أول شهر ربيع الأول من السنة ، وحضروا إلى باب النصر ففُتح لهم ، وخرج الخدم وتقدموا إلى الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الحرم ، وأن يكون مقامهم فى بستان الأربعين ، فدخلوا وكان فى جملتهم

---

(١) أى فى سنة ٥٧٦ هـ .

(٢) المطبق هو السجن .

الأمير قاسم بن مهنا العلوى الحسينى : أمير مدينة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فخرج الخليفة وعليه جبّة بيضاء وطيلسان أبيض ، وبين يديه أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب والخدم ، وبين يديه : عن يمينه وعن شماله ، فقام الناس وقبلوا الأرض وخدموا ودعوا ، وكان أولهم خدمةً جلال الدين أبو المظفر بن البخارى نائب الوزارة ، فتقدم وقبّل الأرض ثم [قبّل] الركاب الشريف ، ثم تلاه الأمراء وأرباب الدولة فخدموا ودعوا والخليفة لا يردّ على واحد منهم جهراً ولا يسمع منه منطقاً ، حتى تقدم الأمير قاسم أمير المدينة فقبل الأرض ، ثم (١٦ ب) قبل الركاب الشريف ، ثم دعا وأحسن وأبلغ فى دعائه ؛ فوقف له أمير المؤمنين ورد عليه السلام جهراً ، ورفع يده فوضعها عليه وأحسن له البشرى ، ثم مضى راكبا والناس بين يديه مشاة حتى خرج من باب النصر ، فأشار إلى أستاذ الدار أبى الفضل بالركوب ، فركب ، ثم ركب بعده نائب الوزارة ثم الأمراء وأرباب الدولة ، وسار فخرج إلى ظاهر بغداد إلى أن وصل إلى الميدان الذى فيه الكشك فدخل إليه ، ولم يدخل معه إلا أستاذ الدار ابن الصاحب ، ثم دخل إلى الكشك فبقى فيه ذلك اليوم وبات فيه .

فلما أصبح ركب فى الميدان وجعل يسير فيه ، ثم أذن للناس من الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الميدان فدخلوا ، فكان أستاذ الدار عن يمينه ، وابن البخارى عن شماله .

ثم إنه خرج فى يومه ذلك إلى الصيد ومعه جماعة الأمراء والمماليك ، ولم يخرج معه من أرباب الدولة سوى أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان فى كل يوم يتصيّد ويرجع إلى الكشك ، فلم يزل ذلك إلى يوم الجمعة ، فتوجّه إلى جامع الرصافة لصلاة الجمعة ، وكان يوماً مشهوداً ؛ فلما قضى صلاة الجمعة — وكان الخطيبَ يومئذ أبو الفرج بن المنصورى — أمر أن تُهيَّأ له

سمارية[1] خفيفة فنزل بها وسار فى دجلة . والأمراءُ فى السماريات بين يديه يسيرون فى خدمته ، وكان [الخليفة] جالساً فى صدر السمارية فى قبة سوداء ، وأستاذ الدار قائم بين يديه وكذلك جماعة ... ... [2]

... ...

(١١٧) . [ثم] أفاض من كرمه على جميع من كان من أصحاب ابن قرا أرسلان مالم ينحصر : من مركوب وكراع وثياب ومتاع وغير ذلك ، وعمل والدى الملك المظفر لابن قرا أرسلان دعوة جميلة أيضاً ، وحمل له عشرة الآف دينار ، ثم عمل ناصر الدين محمد بن شيركوه : — ابنُ عم السلطان [صلاح الدين] — له دعوةً عامة ، وأفاض عليه مالاً جزيلاً ، وكذلك عمّى عز الدين فرخشاه عمل له دعوة وأوسع له العطاء ولمن كان معه ، ولم يزل السلطان هناك فى تلك الأيام يبذل الجود فى اقتناء المحامد إلى أن وصلت رسلُ قلج أرسلان بالطاعة والإذعان لما أراده السلطان من أمر نور الدين بن قرا أرسلان ، وكان المنفذ من جانبه الأمير اختيار الدين حسن بن عفراس وكان كبيراً مقدما عند ملك الروم ، وكتب له السلطان عهداً أكد فيه الشرائط بالاتفاق فيما بينهما ، وانصرف هو وأصحابه بالتحف والخلع والتشريفات الجميلة وعاد كل منهم إلى جهته .

* * *

(١) السمارية هى المعروفة فى مصر بالعوامة أو الذهبية .

(٢) الظاهر أن هنا سقطا فى اللوحات ذلك لان الكلام — ابتداء من هذه اللوحة ١١٧ ا — انما هو عن صلاح الدين .

ذكر دخول السلطان
الى بلد الأرمن ونزوله على حصـــن العانقر (١) وفتحه

ولما انفصل الأمر بينه وبين قلج أرسلان توجه إلى بلد الأرمن لاستئصاله ، وذلك أن متملك(٢) الأرمن ابن لاون استمال قوما من التركمان ليكونوا فى مراعى(٣) بلده وأمنهم على ذلك ، فلما استقروا لم يشعروا به إلاّ وقد صبحّهم(٤) بغدره فأسرهم واستحوذ على أموالهم ، وكانت شكاية المسلمين قد كثرت عليه من سوء أفعاله بهم ، فرأى السلطان الأَوْلى دخول ولايته، فسار إليه بعساكره المنصورة وخيمّ على النهر (١٧ب) الأسود(٥) ، وأباحهم بلاد(٦) الأرمن ، وكان بقربه حصن القابوس ، وعلى ذلك الجبل قلعة(٧) شامخة وهى من الحصون الحصينة والمعاقل المنيعة ، وكان الأرمنى قد أمر أهلها بالنزوح عنها وأضرمها ناراً ، فبادر الناس إلى إخراج غلاّتها وإبراز مودعاتها ، فانتفع العسكر بالزاد والعلف ، وأمرهم السلطان بهدم الحصن وتخريبه فخربوه ، فما برح حتى صار عاليه سافله وعفى آثاره ، وأقام على عزم الدخول إلى بلادهم ، وأذعن ابن لاون

---

(١) من غير تنقيط فى الاصل ،وقد وردت فى أبى شامة : الروضتين ١٦/٢ برســم « المناقير » وعلى هذه الصورة الأخيرة اثبتها الدكتور جمال الدين الشيال فى نشره لابن واصل : مفرج الكروب ٩٩/٢ .

(٢) كان ملك الأرمن فى ذلك الوقت ليون الثانى I.eon II Roupenian وذكر أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ٢٧/٦ ، أن هذه البلاد هى سيس بين حلب والروم من جهة الساحل .

(٣) وذلك على حصانتها وصعوبة مضايقها كما يقول ابن خلدون فى تاريخه٢٩٥/٥ .

(٤) تتشابه ألفاظ خبر استمالة لاون للتركمان وغدره بهم فى كل من المضمار وأبى شامة : الروضتين ١٦/٢ ، س ١٤ ــ ١٥ .

(٥) سيسميه المؤلف بعد قليل (ص ٤٣ س ٧) باسم « كوك سو » ، وهــو المعروف باسم « كونك صو » Gunek Su ، انظرلى سترانج : بلدان الخلافة الشرقيةص١٤٨ .

(٦) فى الاصل « ببلاد » .

(٧) هى القلعة التى يسميها أبو شامة فى الروضتين ١٦/٢ بالمناقير (راجع حاشية رقم (١) واكتفى ابن خلدون : تاريخ ٢٩ ٥/٥ بقوله « كان لابن ليون حصن وفيه ذخيرته » وكذلك ابن الاثير : الكامل ١٩٠/١١ ، اذ قال « فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ فخربه واحرقه » .

بالطاعة ، وأرسل بإطلاق الأسارى المسلمين من التركمان فلم يقنع منه بعد ذلك إلا بخمسمائة أسير ، فأطلق الحاضرين عنده ، ونفذ الرهائن على خلاص الباقين ، واستقر الأمر على ذلك وكتب له الأمان[١] ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان [هذا] من لطف الله تعالى لأن الوقت متعسر ، والقوت متعذر ، والعلف معدوم .

* * *

ذكر وفاة سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى :

ووصلنا رسول[٢] مجاهد الدين قيماز ونحن مخيمون على كوك[٣] سو من حدود الروم ، فخبر السلطان بموت سيف الدين غازى[٤] صاحب الموصل وجلوس أخيه عز الدين مسعود[٥] مكانه ، وكان الرسول فخر الدين أبو شجاع بن الدهان [البغدادى] ومعه نسخة اليمين التى حلف السلطان له بها فقال : « نسألك إبقاء أخيه على ولايته ولا تغير عليه » ، فقال له : « يميننا منوطة بأيام الحياة ، وولاية أخيه عز الدين بغير[٦] عهد منه ولا عقد ،

---

(١) كان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٦ هـ حسب رواية الكامل لابن الاثير ١٩٠/١١ ، أما ابن واصل : مفرج الكروب ١٠٠/٢ فقد حدده بالعاشر من جمادى الاولى .

(٢) هو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادى كما سيرد بعد قليل ، انظر أيضا ابن خلكان : وفيات الاعيان .

(٣) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٤٢ .

(٤) كانت وفاته بالسل فى الثالث من صفر سنة ٥٧٦ هـ بعد حكم دام عشر سنوات وثلاثة أشهر ، راجع الكامل لابن الاثير ١٨٨/١١ ، والباهر ص ١٨٠ ، ومفرج الكروب ، ٩٢/٢ ، وابن خلكان ، والشذرات .

(٥) فيما يتعلق بالظروف التى أحاطت باختيار عز الدين مسعود ولاية الموصل ، راجع ابن الاثير : الباهر ، ص ١٨١ .

(٦) هذا يخالف رواية ابن الاثير فى الكامل ١٨٩/١١ ، وفى الباهر ص ١٨١ ، اذ يشير الى أن سيف الدين غازى عهد بالملك لاخيه عز الدين « لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس » ، راجع أيضا ابن واصل : مفرج الكروب ١٩٣/٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢٨/٦ .

ونحن نرى رأينا فيما نعتمده بعد مطالعة[1] الديوان فى ذلك » . وأعاد الرسولَ بالإكرام ، وشرع فى العود إلى الشام .

ثم رحل السلطان بالنصر والظفر وسار على أعمال حلب ؛ وكان وصوله إلى أعمال حماة فى النصف (١١٨) الأول من جمادى الأخرة من السنة ، ثم رحل من أرض حماة متوجها إلى حمص ، فضرب مخيمه على عاصيها بالقرب منها ، وجاءته رسل الأطراف والجوانب بالتهنئة له بما رزقه الله تعالى من النصر ، وجاءه العلماء والفقهاء والشعراء يهنئونه ويمتدحونه فكان فى جملتهم الفقيه المهذب ابن أسعد الموصلى ، وكان غزير الفضل وافر العلم ، وكان السلطان كلما عبر حمص أمر له بمائة دينار مصرية وخلعةٍ وعمامة ، فِيما مدح السلطان به قصيدة[2] مستحسنة مطلعها :

أما وجفونك المرضى الصحاح
وسكرة مقلتيك وأنت صاحى
وما فى فيك من بَرَد وشهد
وفى خدّيك من ورد وراح
لقد أصبحتُ فى العشاق فردًا
كما أصبحتَ فردًا فى الملاح
فما أسلو هواك بنَهىِ ناهٍ
ولا أهوى سواك لِلَحى لاحى
ولا قلّ الملام غرار غيّى
ولا ثلم العتاب شبا جماحى
أما للاممين عليك عقل
فيشتغلوا بعشّاق القباح

---

(١) أرسل صلاح الدين المطالعة بهذا الشأن لصديقه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ وهى من انشاء العماد ، وقد أوردبعضا منها أبو شامة فى الروضتين ١٧/٢ .

(٢) أورد أبو شامة ، الروضتين ؛ ١٦/٢ — ١٧ منها ثمانية عشر بيتا فقط .

أطعتّ هوى الملاح طوال دهرى
ومن يُطع الهوى يَعصِ المُلاحى

فياسقمى بـــذى طرفٍ سقيم
ويافلتى من القلق الوشاح

يهزّ الغصن فوق نقاً ويَرنو
بحدّ ظُباً ويبسم عن أقاحى

مليح الوجه معشوق المراح
وحلو اللفظ معسول المزاح

يحبّ الراح رائحة بكأسٍ
ويهوى الكأسَ كاسيةً براح

(١٨ب) وقد غرس القضيب على كثيبٍ
فأثمر بالظلام وبالصباح

ومال مع الوشاة ولاعجيب
لغصنٍ أن يميل مع الرياح

ألام على افتضاحى فيه لكن
يقيم عذارُه عذرَ افتضاحى

أليس لحاظه جرحتْ فؤادى
فلا برئت ولا اندملت جراحى

إذا مازاد تعذيبى وهجرى
يزيد إليه شوقى وارتياحى

وكم يهواه من عانٍ مُعَنّىً
ببيت يخاف إطـــلاق السراح

وليلةَ زارنى بعـــد ازورارٍ
على حكمى عليـــه واقتراحى

فبتنا لا الدنو من الدنايا
نراه ، ولا الجنوح من الجناح
يُديرُ كؤوس فيه ومقلتيْه
فيسكرنى عن السكر المباح
وكانت ليلةً لاحـــوب فيها
علىّ ولا اجتراء على اجتراح
وما من شيمتى خلعى عذارى
ولا لبُس الخلاعة من مراحى
قطعنا الليل فى عتب وشكوى
إلى أن قيل : « حىَّ على الفلاح »
ولاح الصبح يحكى فى سناه
صلاحَ الدين يوسف ذا الصلاح
هو الملك الذى أورى زنادى
وفازت عند رؤيته قداحى
يقرّب جوده أقصى الأمانى
ويضمن بشرُه أسنى النّجاح
ومبسوط — بنائله — يداه
إذا انقبضت به أيدى الشّحاح
ولما ضاق حدُّ عن مـــداه
لقينـــاه بآمال فساح

(١١٩) فمن هرم وكعب وابن سعد :
رعاةُ الشاة والنعم المراح ؟
جواد بالبلاد وما حـــوته
إذا جادوا بألبان اللقاح

وأبلج يستهين الموت ، يلقى
بصفحة وجهه بيض الصفاح
ويخشى من دنو العـــار فيه
ولايخشى من الأجـــل المتاح
وقوال — إذا الأبطال فرّتْ — :
« مكانك ثبتةً ، ما من بَرَاح »
ببأس مذهلِ الأُسدِ الضوارى
وسَيْب مخجلٍ سيل البطاح
فيللاّحين والراجين منـــه
أعز حمىً وأكرم مستماح
من النفر الذين إذا تجلوا
أعادو الليل أحلى من صباح
أضاء الدّهر بعد دجاه نورٌ
يلوح على وجوههمو الصبّاح
تفيض بطون راحتهم نوالاً
ويستلم الملوك ظهـــور راح
إذا ما لاقوا الأعـــداء عادوا
بآى النصر والظفر الصراح
بأرماح محطمة ، وبيـــضٍ
مثلمّةٍ ، وأعراض صحاح
ليُفدِ حياءَ وجهك كلُّ وجه —
إذا سُئلَ الندى — جهيم وقاح
ملوك جلّهم مغـــرى بظلم
ومشغول بلهـــو أو مزاح

إذا ماجالت الأبطال ولّى
ويقدم نحو جائلة الوشاح
يرى الإنفاق فى الخيرات خسراً
وأنتَ تراه من خير الرباح
همو جمعوا ، وقد فرّقتَ لكن
جمعتَ به الرجال مع السلاح
(١٩ب) وبون بين مالك بيت مالٍ
ومالك رقّ أملاك النواحى
وباغ أن ينال[1] بلا رجال
كباغ أن يطير بلا جناح
قرنت شجاعة وتقىً وعلماً
إلى كرم الخلائق والسماح
وقد أثنت عليك ظُبى المواضى
كما تثنى بألسنة فصاح
وكم ذلّت من ملك عزيز
وكم دوّختَ من حىّ لقاح
وكم لظباك من يوم اغتباق
من الأعداء أو يوم اصطباح
تبيح حمى الملوك وتستبيه
وما تحميه : ليس بمستباح
وما خضع الفرنج لديك حتّى
رأوا مالا يطاق من الكفاح

---

(١) فى الأصل « يدال » .

وما سألوك عقد الصلح ودّا
ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم — سهلاً وحزنا —
أسوّدا تحت غابات الرماح
على معتادة جوب الموامى
دواحٍ بالملا بيض الأداحى
ألا ياسيل مخجل كل سيل
تظل المحجرات له صواحى
وياغيث البلاد إذا اقشعرّتْ
وضنّ الغيث فى شهرى قماح
تركتُ بنى الزمان ولم أسَلْهُم
ولم أر أهله أهل امتداحى
وقلتُ للاغبات العيش : روحى
إلى باب ابن أيوبٍ تراحى
ولم أنكِح لئيما بنت فكر
وإنكاح اللئام من السفاح
وقد جاءتك يا كفواً كفيا
تُزف إليك طالبة امتياح
(١٢٠) وقد صادفت بحر ندى فراتاً
فما طلبى لأوشال مـــلاح
سألتك أن تجود جديب حالى
فأمرع مرتعى واخضرّ ساحى
ولولا جود كفّك كل حين
يروّى غُلتى وجوى التياحى

بقيْت[1] مدى الزمان حليف فقر
خميصا عارياً ظمآن ضاحى
وما أشكو الزمان وأنت فيه
وإن أصبحت مقصوص[2] الجناح
فقد ضاعت علوم طال فيها
غدوّى ، واستمر لها رواحى
أرى المتقدمين اليوم دونى
فيؤلمنى خمـــولى واطراحى
وأشجى من ضياع العمر حتى
أغص ببارد الماء القراح
وأعجب من صروف الدهر حتى
أكاد أقول : « مازمنى بصاحى »
أيظهر فى السماء ضحىً سناها
ويخـــفى وهى طالعة براح
عسى نعماك تسكننى دمشقاً
وذاك — لكل مالقيْتُ — ماحى
أعيش معاشر العلماء عمرى
وأرباب المحابر والسماح
بقيتَ منعماً أبداً وأضحى
عداك بكل ضاحية أضاحى

ثم إن السلطان أقام بحمص إلى آخر جمادى الآخرة ، وتوجه إلى دمشق فكان دخوله فى أول رجب .

* * *

(١) هذا البيت جواب للبيت السابق ، وينقص دخول اللام على أوله .
(٢) « مخصوص » فى الاصل .

ذكر وصول رسل الخلافة الامامية الناصرة لدين الله

وكان وصول الرسول من دار الخلافة المكرمة صدر الدين شيخ الشيوخ أبي القاسم عبدالرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخادم الخاص إلى دمشق في شهر (٢٠ب) رجب بعد أيام من قدوم السلطان ومعه التفويض[1] والتقليد[2] والتشريف، وكان وصوله إلى دمشق كيوم عيد، فتلقاه السلطان بالتعظيم والتبجيل وترجل له وأبدى الخضوع، وترجل عند ذلك شيخ الشيوخ وبشير الخاص، وسلما عليه من أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — فقبل الأرض ثم ركبوا ودخلوا دمشق، فأنزله السلطان أكرم منزل، وركب ثاني يوم وصوله بموكبه وعليه الملابس النبوية والتشريفات الإمامية، وكان قد عزم على قصد الديار المصرية، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغبه في زيارة الشافعي رضوان الله عليه، فمضى في صحبته إلى مصر للزيارة، وتوجه منها إلى مكة — شرفها الله تعالى، وذلك بعد ما سير السلطان في جواب رسالته إلى الديوان العزيز ضياء الدين الشهرزوري صحبة شهاب الدين بشير.

* * *

فصـــل

من الكتاب السلطاني إلى الديوان العزيز المنفذ على يد ضياء الدين وذلك بعد استيفاء أقسام الخدمة الإمامية:

«.... قد سبقت مطالعته بما انتهى إليه من أداء الفرض، وتقبيل الأرض، والإفاضة في شكر ما أفيض عليه من التشريفات التي اسحبته ذيل الفخار، وأصحبته الشرف السامي المنار، وأحظته بالإيثار، وحضته على العبودية الحميدة الآثار، المأمونة العثار، وما أسعده وقد خص برسالة الجانب المحروس الصدري شيخ الشيوخ شرقاً وغرباً، وسفارته التي زادها وجه

---

(١) أي أن يفوض السلطان اليه أمر سروج والرها واروة وحران والخابور ونصيبين.

(٢) التقليد هنا بمعنى الرسوم بتولية شأن من شئون الدولة. اما فيما يتعلق بالخلعة التي كانت أول خلعة يقدمها الخليفة الناصر لصلاح الدين فراجع ابا شامة: الروضتين ١٩/٢.

استبشاره سفوراً ، وأمد استظهاره واستنصاره قوةً وظهوراً ، وطرف استبصاره ضياءً ونوراً ، فإنه (١٢١) وإن كان قد تناهى فى العبودية إلى مدى لا مزيد عليه لمستزيد ، ولامطمع فى توقّل هضباته لمريد ، غير أنه بالوفود الصدرى ارتفع قدره ، وانشرح صدره ، ونظم فى سلك الأبرار أمره ، وسر سره ، ونصر نصره ، وتوالى لما أولاه مولانا الإمام من مقدم مثله عليه شكره ، وأطلعه على أسباب فى الإخلاص ما تجد سوى الخادم لها أهلا ، وعاد ببركة قدومه كل صعب سهلا ، وأصبح أمله منه بعبء النجح مستقلا ، واستجلى بغرّته المباركة عزة البركة ، واستحلى لعزة قدومه الميمون عزة المملكة ، وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ، وترتيب مصالحها وتوخيها » .

ومنه :

« وقد ندب القاضى ضياء الدين [الشهرزورى] ينوب عنه فى رفع الأدعية والقيام بشرائط العبودية ، وقرر معه من أسباب الخلوص وأسرار العموم والخصوص ، ما ينهيه ، وينتهى إلى غاية الحد فيه » .

* * *

ذكر رحيل السلطان الى مصر

ولما تمّ عزمه على قصد الديار المصرية خصّ عمى عز الدين فرخشاه[1] بالنيابة عنه فى الشام ، وقلّده أمر الأجناد وولاية الأعمال ، وأمر والدى الملك المظفر بالرجوع إل حماة وملازمة ثغرها والنظر فى أمورها وترتيب أحوالها ، وكان خروجه من دمشق يوم الاثنين ثامن [عشر][2] شهر الله

---

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ١٠١/٢ ، ويعزو ابن الاثير : الكامل ١٩١/١١ سبب عزم صلاح الدين على السير الى مصر ما بلغه من وفاة أخيه شمس الدولة تورانشاه ابن أيوب بالاسكندرية ، وكان قد أخذها اقطاعا منه .

(٢) فى الأصل « ثامن شهر رجب » فقط . والتصحيح بناء على ما ورد فى ابن واصل ؛ مفرج الكروب ١٠١/٢ ، والمقريزى : السلوك ، ٧١/١ ، ويستدل من عبارة لابن الاثير ١٩١/١١ على أن مسيرته اليها كانت فى شعبان وليس فى رجب .

الأصب رجب ، ووصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر شعبان ، واستقبله مَن بها من العساكر والأكابر ، وكان نائبه بها يومئذ أخوه[1] الملك العادل ، وأقام السلطان بمصر مشتغلا بمصالح الدين والدولة والجلوس فى دار العدل يومى الإثنين والخميس لتشييد منار (٢١ ب) الحق وتفريج الكرب وإسداء المعروف وكشف المظالم ، فلم يزل بمصر إلى آخر السنة المذكورة .

وفيها عاد السيد أبو يعقوب إلى مراكش وذلك فى أواخرها .

* * *

واقعة (٢) قراقوش المظفرى فى هذه السنة

وفيها توجّه شرف الدين قراقوش إلى دمّر ورزيقا وقابس وذلك بعدما نفّذ إلى إبراهيم ، وجدّد فيما بينهما اليمين والمواثيق بأنه لا يغدر أحد منهما بصاحبه وقال : « تركت هذه البلاد وأهلى بقلعة أم العزّ فى وديعتك وأنا متوجّه ، فإن فتح الله تعالى علىّ واستغنيت عنها أعطيتك الجميع » ، وسار فوصل إلى دمّر وكان بها مقدّم سلطان يقال له « عثمان » ، وله قلعة منيعة وبلاد كثيرة فاستولى على البلاد كلها ، وبقى عثمان فى القلعة فلم يقدر عليها ، وكان بدمر إنسان مقدّم يسمى « فروخا » له قلعة ليست[3] بالحصينة وكان عدوًّا لعثمان ، فوصل إلى شرف الدين وأطاعه وحالفه ، وعلم عثمان بذلك فقامت قيامته ، وخرج من قلعته يستنفر البربر ويقول لهم : « إنما هؤلاء العزّ قافلة » فلما سمع شرف الدين بخروج عثمان من قلعته

---

(١) وهو سيف الدين أبو بكر بن أيوب .
(٢) لم يذكر ابن الاثير هذا الخبر .
(٣) فى الأصل « ليس » .

وإبعاده عنها قال : « إن لم أدرك الفرصة منها الآن ما أعود أقدر عليها » ، فرحل من الموضع الذى كان فيه واستقبل طريقها ، فلما وصلها أخذ ربضها من ساعته وأطلق يده بالقتل ، فقتل من البربر الذين بها مازادت عدته على ألفى رجل ؛ وكان سكان هذا الجبل وجبل نفوسة ومطماطة وزنزفا وملاقة ومقرة وعربان ، وكلهم خوارج يلعنون علياً عليه السلام .

ولما رآى (١٢٢) أهل القلعة ما حلّ بأهل الربض من القتل والنهب ارتاعوا واعتقدوا أن لا منجا لهم ، وكانوا غير خبراء بحفظ القلاع ، فراسلوه على أنهم يأمنون على أنفسهم وأموالهم فأمنهم ، وانتهز الفرصة فى يومهم وما جاء الليل [حتى][1] خرجوا من القلعة بما قدروا عليه ، وأطلقوا جملة من خيلهم ومتاعهم ، وبقى الثقل من الغلة والأثاث ، فأخذ منه ما قدر عليه وبقيت القلعة فى يده .

وسمع عثمان ما جرى فى قلعته وربضها فضاقت عليه الأرض ، وما كان له سبيل إلا مراسلة شرف الدين قراقوش وسؤاله العفو عنه ، وأن يكون غلاماً له ، وأن يكون الجبل كله فى طاعته ؛ فأمنه وأعاده إلى قلعته وخلع عليه ، وأحضر له أهل الجبل من أطاعه منهم واستحلفه على الطاعة ، وأعطى البلاد الأجناد إقطاعات ، وسار به إلى مابقى من القلاع العاصية ، فنزل على قلعة العطش وهى قلعة عجيبة ، حكى لى بعض أصحابى ممن أثق به بعد ما أقسم بالله أنه ما رأى بالشام قلعة أعلى منها ولا أحصن ، فنزل تحتها ، وهى عالية جدا لا يصل إليها النشاب ، فأقام تحتها ثمانية عشر يوما لا يقاتلها لأنها لا تقاتل ، فاتفق فى اليوم التاسع عشر أن إنساناً من عبيد شرف الدين تحيّل وتسلق فى الجبل الذى عليه القلعة ، ولم يزل يتسلق من موضع إلى موضع إلى أن قارب سورها ، واختبى تحت قلاعة لا يصل إليه حجر لأن النشاب عندهم قليل ،

---

(١) غير واردة بالأصل وقد أضيفت لمستقيم المعنى .

فلما رأى الناس ذلك العبد قد تسلق انهالوا فى دفعة واحدة وصعدوا الجبل كما صعد [العبد] فصار عنده جماعة ، وما كان نصر أهل القلعة كون أولئك صاروا فى ذلك الموضع إلا أن الله تعالى خذلهم ، فلما شاهد من بالقلعة أولئك نادوا (٢٢ ب) وطلبوا الأمان ، فقطع عليهم فطيعة أعطوه مبلغها وأبقاهم على حالهم فى قلعتهم بعد أن استحلفهم على الطاعة ، وأقطع عملها الأجناد ، ورحل عنها إلى قلعة يقال لها « أم لامة » فنزل قريبا منها وهى فى الحصانة على حالة لا يقدر الإنسان عليها ، فأقام تحتها مدة شهر وهو لا يقدر على قتالها ، بل يغنم الأجناد من البلاد وينهبون الضياع ويأخذون البربر يقتلونهم بالسيف والدخان فى المغاير ، وكان صاحب هذه القلعة له نسب متصل بمناية — قبيل من البربر — فى جبل من جبال قفصة يزيدون[٢] على عشرين ألف راجل ، فنفذ إليهم واستمرت كتبه إليهم يستدعيهم ، فوصلوا بعد هذه المدة .

وأصبحوا فى باكر يومهم ينسلون من كل حدب من الجبل ، فرأى شرف الدين وأصحابه ما نالهم من كثرة البربر ، وكانت الطرقات التى ينزلون منها من الجبل كلها وعرة ، ولم يكن بها طريق سهل إلا طريق واحدة تقدر الخيل عل الركض فيها والصعود فيها ، فاستقبلها شرف الدين بجماعة ممن معه ، وبقى جماعة فى الخيم قائمين لحفظها ولم يكن بالعاجز إلى أن وصل إلى تلك الطريق ، وقصد من كان بها نازلا فانهزموا طالعين من حيث كانوا نزلوا ، فلحق منهم جماعة قتلهم هو وأصحابه ، وأخذوا عشرين رجلا أسرى ، وكان من الأسارى صبى أمرد مليح الصورة عليه شعر طويل كثيف ، وجاء إلى الخيمة وقد انهزم كل من جاء من الرجالة من كل طريق نزلوا منها بانهزام من هزمه شرف الدين من الطريق السهلة ، فلما وقف

---

(١) يقصد من يمت منهم له بالنسب من هذه القبيلة .

تحت القلعة — [وقد] أشرف أهلها منها عليهم كلهم من ناحية الخيم — قال الأمير جندار : « أقتل واحداً واحداً » ، فلم يزل يقتل واحداً واحداً إلى أن قدم الصبى الأمرد وهو مع ذلك يضحك غير مكترث بالقتل ، فصاح أهل (١٢٣ ا) القلعة : « أمسكوا عن قتله » ، ونزل واحد من القلعة وقال لشرف الدين : « نحن نفتدى هذا منك بعشرة ألف دينار » فقال شرف الدين: «ما أفعل » ، فبلّغه إلى عشرين ألف دينار فقال : « ما أفعل » ، ثم قال لأمير جندار : « اضرب عنقه » فصاحوا من القلعة : « لا تفعل ؛ نحن نفتديه بما تريد » ، فقال : «لا سبيل إلى تركه» ، ثم ضربه أمير جندار ضربة أبان بها رأسه عن جسده ، فما استتم قتل الباقين إلا وقد نزل من القلعة شيخ أحسن ما يكون بين الشيوخ وجاء إلى شرف الدين وقال : « هذه مفاتيح هذه القلعة خذها ، بارك الله لك فيها فأنا صاحبها » ؛ فعجب شرف الدين من ذلك وما أعطى أمانا ولا قولا ، فلم يكن شرف الدين بالعاجز أن نفذ فى فوره من قبل أن يتقصّى من الشيخ ما سبب ذلك ؛ [فجاء][1] من أصحابه مائة رجل طلعوا إلى القلعة وحين صاروا بها أنزلوا من كان فيها وأغلقوا بابها وكان بها ذخائر عظيمة .

ثم إن شرف الدين أحضر الشيخ وتقصّى منه بعد ذلك وقال له : « يا شيخ : ما السبب الذى أوجب أن تعطى هذه القلعة التى ما يقدر عليها أحد من غير عهد ولا أمان ؟ » ؛ فقال : إن فى قصتى عجبا ، هذا الشاب الأمرد الذى قتلته : ولدى ؛ وما كان لى ولد غيره ، وكان بينه وبين أولاد أخى معاداة وكنت أوثر أن تكون هذه القلعة له ، فلما قتلته

---

(١) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم الاسلوب .

علمت أنى إن تركت القلعة فى يدى وأصابنى الموت أخذها أولاد أخى بعد ولدى، وما آثرت ذلك، وآثرت أن أمنعهم من ذلك بعده وسلمتها إليك » ، فرق له شرف الدين عند ذلك وقال : « لو أعلم هذا ما قتلته » .

وأخذ شرف الدين منها أموالا وذخائر عظيمة ، ورحل عنها بعد ما سلمها للشيخ واستحلفه أنه متى (٢٣ ب) طلبها وسير إليه من يكون فيها سلمها إليه ، وتوجه [شرف الدين] إلى قلعة حسن فنزل عليها أياما ولم يقدر منها على شىء ، وكان أهلها ينزلون فيقاتلون فى الوطا ، فرحل عنها ومضى إلى ناحية جهة مطاطة ونازلها ، وهى بلد ما بين قابس وقفصة ، وإلى قابس أقرب مقدار نصف نهار فنزل عليها وقاتلها أياما .

* * *

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمس مائة :

فيها نقل المستضىء — قدس الله روحه — من الدار التى كان مدفونا فيها إلى الدار العتيقة لبعض الجهات غربى دجلة من بغداد عند رأس الجسر مجاورة لجامع فخر الدولة بن المطلب ، وكانت العادة أن يدفن الخلفاء بمقابر قريش بالمحلة المعروفة بالرصافة ، إلا المستضىء — رضوان الله عليه — فإنه ذكر عنه أنه أوصى بذلك ، وقيل إن الإمام الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — اختار هذه الحال لأجل خريدة أمير المؤمنين لئلا تبعد عليها زيارته ولا تجد من يدله بعد الطريق فاختار ذلك لقربه ، وأقام للموضع فراشين وبوابين فلا يقدر أحد على الدخول لزيارته إلا بإذن ، وأوقف عليه وقوفاً كثيرة وجعل لتربته الراتب من الشموع والوظائف من المخزن الشريف ، وعمل على ضريحه صندوقاً من الساج وغرم عليه مبلغاً من المال .